المنهج النقدي في التفسير عند الإمام عبد الحميد بن باديس

د.محمد دراجي

أستاذ بالمعهد الوطني العالي لأصول الدين بالجزائر.

القرآن الكريم الذي هو كلام الله تعالى المنزل على سيدنا محمد ﷺ، المنقول عنه بالتواتر، المكتوب في المصاحف، المتعبد بتلاوته، المعجز بلفظه ومعناه.

إنما أنزل للتفهم والتدبر، يقول تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾[1] ويقول تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن، أم على قلوب أقفالها﴾[2].

فتدبر آيات هذا الكتاب المعجز، هو الدليل على أنّ قلب الإنسان لم يختم عليه ولم تحط به الأقفال من جميع الجهات.

والعلم الذي يعنى بفهم آيات الوحي هو التفسير، وإذا كان التفسير في اللّغة لا يخرج عن معنى الكشف والبيان[3]،فإنّه في الاصطلاح قد عرّف عدّة تعريفات إن اختلفت في مبانيها فإنّها قد اتفقت في معانيها، وخلاصة هذه التعريفات هو (علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية)[4].

والقيد الأخير في هذا التعريف و هو (بقدر الطاقة البشرية) مهم جدّا، لأنّه يقودنا إلى البحث عن حجية التفسير، فإلى أي مدى يكون الفهم –فهم مفسر من المفسرين– حجة لا يجوز العدول عن هذا الفهم إلى غيره؟

وللإجابة على هذا السؤال نبادر إلى القول بأنّ المفسرين ليسوا كلّهم في مرتبة واحدة.

فالنبي ﷺ فسّر كثيرا من الآيات التي أشكل على الصحابة رضوان الله تعالى عليهم فهمها، والقرآن الكريم يخاطبه بالقول: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾[5].

والصحابة الكرام –بعد وفاة النّبي ﷺ– فسروا الكثير من الآيات، واشتهر منهم أعلام في التفسير، وكان أجدر الصحابة رضي الله عنهم

بلقب المفسر هو عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

وبعد انقضاء عصر الصحابة -كبار الصحابة خصوصا- فإنّ التابعين وهم تلامذة الصحابة، قد فسروا الكثير من الآيات -كذلك- واشتهر منهم أعلام في التفسير، وتأسست في هذا العهد مدارس للتفسير في مكة، والمدينة والكوفة...الخ

وإلى يوم النّاس هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها والتفاسير تترى، والجهود المبذولة لفهم القرآن متواصلة غير منقطعة.

فإلى أي مدى يكون الفهم حجة؟

إنّ الذي أجمعت عليه كلمة العلماء المحققين أنّ التفسير إذا صحت الرواية به إلى النبي ﷺ فإنّه حجة لا يجوز العدول عنه إلى غيره من الآراء والتخمينات والظنون؛ يقول ابن تيمية: «ومما ينبغي أن يعلم وأن القرآن والحديث إذا عرف تفسيره من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك إلى أقوال أهل اللّغة فإنّه قد عرف تفسيره»[6].

أمّا التفاسير المنسوبة إلى الصحابة رضي الله عنهم، فإنّ أكثر العلماء على اعتماد أقوالهم في التفسير، والاحتفاء بها وتقديمها على غيرها من الأقوال، لأنّهم قد شاهدوا التنزيل وعاينوا أسباب النزول، ويضاف إلى هذا سلامة فطرتهم، ونقاوة سريرتهم ورسوخهم في الفصاحة والبيان.

يقول ابن تيمية: «وما نقل عن الصحابة نقلا صحيحا فالنّفس إليه مما ينقل عن التابعين لأنّ احتمال أن يكون قد سمعه من النبي ﷺ أو ممّن سمعه منه أقوى، ولأنّ نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين، ومع جزم الصحابي بما يقوله كيف يقال: إنّه أخذه عن أهل الكتاب وقد نهوا عن تصديقهم»[7].

وفرق فريق آخر من العلماء بين المرفوع والموقوف من تفسير الصحابي، فقبلوا التفسير المرفوع ولم يقبلوا التفسير الموقوف، يقول جلال الدين السيوطي: «... الأخذ بقول الصحابي فإن تفسيره عندهم بمنزلة المرفوع إلى النبي ﷺ. قاله الحاكم في مستدركه قلت -أي السيوطي- ما قاله الحاكم نازعه فيه ابن الصلاح وغيره من المتأخرين لأنّ ذلك مخصوص بما فيه سبب النزول أو نحوه ممّا لا دخل للرأي فيه...»[8].

وهكذا فتفسير الصحابي ليس حجة بإطلاق، وقد توسع بعض المفسرين في رفض تفسير الصحابي لاحتمال أن يكون أخذه عن أهل الكتاب[9]

وأمّا تفاسير التابعين فهي أقل اعتبارا من تفاسير الصحابة، ولذا فإن العلماء اشترطوا لقبول تفسير التابعي أن يكون ممّا لا مجال فيه للرأي والاجتهاد، مع تصريحه بعدم تلقيه لهذا الرأي عن أهل الكتاب، لأنّ التابعين وسعوا في

أخذ الإسرائيليات عن أهل الكتاب وروايتها عنهم، لكن إذا أجمع التابعون على شيء فإن تفسيرهم يكون حجة، يقول ابن تيمية: «قال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين ليست حجة فكيف تكون حجة في التفسير؟ يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم وهذا صحيح، أمّا إذا أجمعوا على الشيء، فلا يرتاب في كونه حجة، فإذا اختلفوا فلا يكون قول بعضهم على بعضهم حجة ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى عموم لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب وأقوال الصحابة في ذلك»[10].

وقد توسع بعض المفسرين في عدم اعتبار تفاسير التابعين، فهي عنده ليست حجة ولو كانت مما لا مجال للرأي فيه والاجتهاد، وحتى ولو لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب[11].

وهكذا نخلص إلى أنّ الأقوال المنقولة في التفسير ليست كلها في مرتبة واحدة من حيث الحجية بل هي متفاوتة فيها، فهناك أقوال متفق على أنها حجة يجب المصير إليها وعدم العدول عنها، وهناك أقوال أخرى، مختلف في حجيتها، وهناك أقوال متفق على عدم حجيتها وما هذا إلاّ لأنّ التفسير هو محاولة لفهم الوحي على قدر الطاقة البشرية.

مفهوم المنهج النقدي ودواعيه:

إنّ مفهوم المنهج النّقدي هو القراءة الواعية المتفحصة، المغربلة للتراث التفسيري كما وصلنا اليوم، فالمفسر الناضج الذّي ينطلق من القرآن الكريم لتأسيس مشروع إصلاحي، تجديدي، يهدف من خلاله إحياء ما اندرس من معالم الإسلام، وتصحيح ما انحرف من أفكار، وبناء ما انهدم من مؤسسات أو تخرب من علاقات اجتماعية... الخ، يواجهه ركام هائل من أقوال المفسرين وآرائهم في تفسير كثير من الآيات، بعضه صالح والكثير منه لا يصلح للمفسر المعاصر، فلا بدّ لهذا المفسر من إعمال عقله لقبول ما يقبل ورفض ما يرفض.

وفي نظرنا فإن دواعي المنهج النّقدي كثيرة نذكر منها على وجه الاختصار:

1- تفاوت حجية أقوال المفسرين -كما مرّ معنا-

2- إنّ القرآن الكريم لا يستقل بتفسيره عصر دون عصر، أو قوم دون أقوام، بل هو موصوف بأنّه لا تنقضي عجائبه، وقد جاء في الحديث الذي رواه الإمام الترمذي وصُف القرآن بأنّه: «حبل الله المتين والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا يخلق على كثرة الرد،

ولا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم»[12].

و ما دام القرآن لا تنقضي عجائبه لأنّ آياته لا تخضع لقانون الزمان والمكان، فالمفسر في كل عصر يجد فيه ما يواجه به المشكلات المستحدثة، والقضايا المستجدة، وهذا لا يمكن تحقيقه إلاّ إذا تجاوز المفسر كثيرا من الآراء التفسيرية التي قيلت في عصور تختلف مشكلاتها عن عصرنا الراهن.

3- هناك اتجاه في التفسير ومنذ عصر التابعين، ولع بالنّقل وإغفال العقل، فحشا كتب التفسير بالأقوال الغريبة، والإسرائيليات الباطلة، فاختلط فيها الصحيح بالعليل، والأصيل بالدخيل، وخير مثال على هذا الذي نقول [تفسير مقاتل بن سليمان] الذي قال فيه الدكتور محمد حسين الذهبي رحمه الله محللا محتواه: «والحق أن تفسير مقاتل يحوي من الإسرائيليات والخرافات وضلالات المشبهة والمجسمة ما ينكره الشارع، ولا يقره العقل، وإذا كان حقّا ما نسب إلى الإمام الشافعي قوله الناس عيال في التفسير على مقاتل فلست ألمح في قوله هذا استحسانا لتفسيره ولا ثناء عليه ولا أعقل من هذه العبارة -وقد بلوت تفسير مقاتل- إلاّ أن الشافعي أراد أنّه كان مرجعا للمفسرين على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم»[13].

4- وبالإضافة إلى الاتجاه المولع بالنّقل غير الصحيح، ونعني به الاتجاه المذهبي في التفسير، وهو الاتجاه الذي يدخل أصحابه إلى مجال التفسير القرآني بمقررات فكرية، ومقدمات عقلية مقدّرة سابقا، فالمعتزلة على سبيل المثال لا الحصر قد قرروا الأصول الخمسة المعروفة وانطلقوا منها في التعامل مع النّص القرآني، وأصبحت هي الميزان في الفهم والتقويم... حتى أنّ جلال الدين البلقيني قال عن [تفسير الكشاف] لأبي القاسم جار الله الزمخشري: «استخرجت منه اعتزاليات بالمنقاش»[14]

5- إنّ الذي يقرأ كتب التفسير، خصوصا بعد العصور الإسلامية الزاهية الأولى، يجدها مرتعا لذكر الأقوال العديدة في تفسير الآية الواحدة، والغريب أن المفسرين -هؤلاء- كان تعاملهم مع هذه الأقوال إمّا بالتلخيص الذي يؤدي إلى الاستغلاق، وإمّا تأييدا أو رفضا بناء على المذهب الكلامي والفكري للمفسر، وهكذا أصبح درس التفسير ترديدا لأقوال المتقدمين.

ومحاولة شرحها، فوضعوا هكذا الشروح والحواشي والهوامش، فتحول درس التفسير من محاولة فهم كلام الله تعالى، وتطبيقه على واقع

المسلمين -وهذا هو الغرض الأساسي للقرآن الكريم- أصبح درس التفسير هو محاولة فك الغموض: غموض عبارة الشارح والمحشي؛ وهكذا أصيب درس التفسير بالجدب العلمي، والعقم الفكري، واستولى عليها الركود آمادا طويلة.

فهذه المبررات وغيرها كثير -لو أردنا أن نقوم بعملية استقصائية- تجعل المنهج النقدي أكثر من ضرورة لحسن الاستفادة من كتب التفسير العديدة والمتنوعة، لأنّ التجديد الذي ننشده في علم التفسير، ليس هو قطع الصلة بأقوال المفسرين القدامى وطرح تراثهم جملة وتفصيلا، والإتيان بآراء نابية غريبة، مبتوتة الصلة عن القرآن ولغته -كما يحلو لكثير من المستشرقين- قسيمة هذا التوجه تجديدا، فكل فكر لا يستهدف تخريب مبادئ الإسلام، وتقويض أسسه فهو ليس فكرا جديدا، ويخرجها عن دلالتها اللّغوية فهو مجدد كبير(15).

وإنما يبدأ هذا التجديد من عرض الآراء السابقة ومناقشتها، لأنه يصل حاضر الأمة الإسلامية بماضيها، ثم إن الاتصال بالتراث التفسيري القديم نفسه يفيد حركة التجديد ويمكن لها، ويعرفها بمجالات التجديد، وعناصر القوّة في التراث التفسيري، ونقاط الضعف التي يجب أن يتجاوزها المفسر المعاصر.

تاريخ المنهج النقدي في التفسير:

إنّ العلماء المجددين، لم يفتأوا يناقشون الآراء التفسيرية المنقولة في كتب التفسير، ولم يجدوا أيّ مانع في توظيف عقولهم في توليد أفكار جديدة، ومعاني لم يخطر للسابقين على بال. يقول فخر الدين الرّازي عند تفسير قوله تعالى: ﴿فإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة﴾(16): «أثبت في أصول الفقه أن المتقدمين إذا ذكروا وجها في تفسير الآية، فذلك لا يمنع المتأخرين من استخراج وجه آخر في تفسيرها، ولولا جواز ذلك لصارت الدقائق التي استنبطها المتأخرون في التفسير مردودة - وذلك لا يقوله إلاّ مقلد خلف»(17).

وأبو حامد الغزالي -حجة الإسلام- ظلّ يدعو إلى إعادة النّظر في الآية حتّى تنكشف للمفسر معان مكنونة لا تنكشف إلاّ للموفقين ثم قال: «ومن موانع الفهم أن يكون، قد قرأ تفسيرا واعتقد أن لا معنى لكلمات القرآن إلاّ ما تناوله النّقل عن ابن عباس ومجاهد، وأنّ ما وراء ذلك تفسير بالرأي فهذا من الحجب العظيمة»(18).

ونفس الموقف نجده عند شيخ الإسلام ابن تيمية الذي أقام منهجه في التفسير على رؤية نقدية للتفاسير السابقة، ومما قاله في هذا المجال: «إنّ الكتب المصنفة في التفسير مشحونة بالغث

والسمين، والباطل الواضح والحق المبين، والعلم إمّا نقل مصدق عن معصوم، و إما قول عليه دليل معلوم، وما سوى ذلك فإما مزيف مردود، و إمّا موقوف لا يعلم أنه بهرج ولا منقود، وحاجة الأمة ماسّة إلى فهم القرآن»[19]

وما ذكره شيخ الإسلام هو عين الصواب، فإنّ حاجة الأمة إلى فهم كتاب الله والعمل بمقتضاه، والاهتداء بهديه، حاجة ماسة وأكيدة، وكتب التفسير–أحيانا– لا تنقع الغلة ولا تشفي العّلة، فما العمل؟

لا بدّ من الاطلاع على التراث التفسيري، لكن إذا وجده المفسر لا يفي بالحاجة فلا بدّ من إعمال الرأي، وتحريك الفكر من أجل الوصول إلى فهم جديد للنّص القرآني يتلاءم والواقع الجديد، ولذلك يقول ابن تيمية: «وربما اطّلعت على الآية الواحدة في مائة تفسير، ثم أسأل الله تعالى الفهم»[20].

وانتهج هذا المنهج من بعد ابن تيمية علماء أعلام ولكن سرعان ما استولى على الأمة الإسلامية الركود العلمي الذي يميل إلى ترديد الأقوال وتناقلها دون استخدام ملكة التمحيص والنّقد، فعرف علم التفسير مرحلة انحطاط، لم تضف جديدا إلى علم التفسير، بل زادت التراث التفسيري غموضا إلى غموض، وتعقيدا على تعقيد، واستمر هذا الوضع طويلا، إلى أن بزغت بوارق الأمل على أيدي دعاة الإحياء الإسلامي، أو التجديد الإسلامي الحديث، والتي بدأت على أيدي محمّد بن علي الشوكاني(1250هـ) ومحمود شكري الألوسي (1270هـ) ومحمد حسن صديق خان (1307هـ) واكتمل نضجها وآتت أكلها على أيدي مفسري مدرسة المنار الذين سنفردهم بكلام خاص.

مدرسة المنار والمنهج النقدي:

إنّ رجال مدرسة المنار: –جمال الدين الأفغاني (1897) ومحمد عبده(1903) ورشيد رضا (1935)– قد دعوا إلى التجديد في التفسير القرآني، بما يستجيب لمتطلبات العصر الحديث، وأن التفاسير القديمة على كثرتها وتنوعها وغناها فإنّها لا تغني عن تفسير جديد، يقول الشيخ محمد عبده: «قد يدّعي بعض أهل العصر أنه لا حاجة إلى التفسير والنظر في القرآن لأن الأئمة السابقين نظروا في الكتاب والسنّة واستنبطوا الأحكام منها، فما علينا إلاّ أن ننظر في كتبهم ونستغني بها، وهكذا زعم بعضهم، ولو صحّ هذا الزعم لكان طلب التفسير عبثا يضيع به الوقت سدى... وهو على ما فيه من تعظيم لشأن الفقه مخالف لإجماع الأمة من النبي ﷺ إلى آخر واحد من المؤمنين، ولا أدري كيف يخطر هذا على بال مسلم...؟

خاطب الله بالقرآن من كان في زمن التنزيل ولم يوجه الخطاب إليهم بخصوصية في أشخاصهم، بل لأنهم من أفراد النوع الإنساني الذي أنزل القرآن لهدايته، يقول تعالى: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾[21] فهل يعقل أنه يرضى منا بأن لا نفهم قوله هذا، ونكتفي بالنظر في قول ناظر نظر فيه، ولم يأتنا وحي من الله بوجوب اتباعه لا جملة ولا تفصيلا؟

كلا إنّه يجب على كل واحد من الناس أن يفهم آيات الكتاب بقدر طاقته، فقد أنزل الله هذا الكتاب وجعله آخر الكتب، وبين فيه ما لم يبينه في غيره في كثير من أحوال الخلق وطبعائه، والسنن الإلهية في البشر، وقص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنته فينا، فلا بد للناظر في هذا الكتاب في النظر في أحوال البشر، في أطوارهم وأدوارهم ومناشيء اختلاف أحوالهم من قوة وضعف، وعزّ وذلّ، وعلم وجهل، وإيمان وكفر، ومن العلم بأحوال العالم الكبير، علويه وسفليه، ويحتاج هذا إلى فنون كثيرة من أهمّها التاريخ بأنواعه»[22]

وهذا النص مهم جدّا في بابه، فالشيخ محمّد عبده يدعو المسلم المعاصر -بله عن المفكر والمعاصر- إلى إعمال عقله لفهم النصوص القرآنية والاهتداء بهديها، وألاّ يرضى بفهم جيل معين، أو أقوام معينين، لأنّه لا يوجد في نصوص الكتاب والسنّة ما يلزم المسلم بالركون إلى ذلك الفهم ووجوب اتباعه.

ولقد كانت مدرسة المنار تملك تصورا واضحا كل الوضوح حول ضرورة عدم تقديس أفهام السابقين، واجتهادات الأولين، وترى العصمة مضمونة لهذه الأمة في نصوص الكتاب وصحيح نصوص السنة أما الأفهام والاجتهادات فهي متغيرة متبدلة بحسب الزمان والمكان، يقول جمال الدين الأفغاني: «القرآن وحده سبب الهداية والعمدة في الدعاية، أمّا ما تراكم عليه وتجمع حواليه من وراء الرجال واستنباطاتهم ونظرياتهم فينبغي ألاّ نعوّل عليه كوحي، وإنما نستأنس بها كرأي ولا نحملها على أكفنا مع القرآن في الدعوة إليه، وإرشاد الأمم إلى تعاليمه لصعوبة ذلك وتعسيرها وإضاعة الوقت في عرضه»[23]

وهذه المعالم النظرية التي وضعها السيد جمال الدين الأفغاني، قد انطلق منها العلامة محمد رشيد رضا الله في التعامل مع التراث التفسيري، فأقام منهجه في التفسير على القراءة الواعية، والنقد الرصين، فتجاوز كل الآراء والأفكار التي أنتجتها ظروف تاريخية معينة، وعمل بجهد الكبير على تنقية الفكر الإسلامي من الدخيل والمدسوس من الأفكار، يقول الدكتور محسن

عبد الحميد: «... إن قيام صاحب المنار بغربلة ما في التفسير، وطرح كل ما يعيق نهضة المسلمين جانبا وإبعاد الآراء والأفكار التي أوجدتها ظروف تاريخية خاصة، وتنقية الفكر الإسلامي منها ومن أوزارها، وكشف أعداء الإسلام ومخططاتهم لهدم عقيدته وشريعته قديما وحديثا، قد وضع المسلمين على الطريق الصحيح، وجسّد أمامهم المأساة التي يعيشون فيها، وأوضح لهم طريق الخلاص الذي يتمثل بالعودة الحقيقية إلى الكتاب والسنة، والتخلص من جميع مظاهر الاستعمار العسكري والفكري والاقتصادي، والأخذ بأسباب الحضارة والمدنية مع وجوب الاحتفاظ بالشخصية الإسلامية»[24].

ويبرز الشيخ محمد الغزالي رحمه الله بصورة أكبر المنهج النقدي عند العلامة محمد رشيد رضا بالقول: «...وكان الرجل صاحب فكر متميز، ومقولة مدعومة في المجامع العلمية، فما عزه بريق ولا هالته كثرة، وكان بصيرا بعلل الضعف التي انتابتنا ومداخل الشيطان في حياتنا، وكان عميق الشوق إلى إحياء العقل الإسلامي والعودة به إلى نقاء السلف الأول» [25].

والذي يطالع تفسير المنار، يجد صدق هذه الشهادات في حق صاحبه رحمه الله، فقد كان واسع الاطلاع على أعمال من تقدمه من المفسرين، والدليل على ذلك كثرة المصادر التفسيرية والمراجع التي كان يعود إليها عند تفسيره للقرآن الكريم، حتى أن أمير البيان شكيب أرسلان كان كثير الدعاء والضراعة إلى الله تعالى أن يفسح في أجله، حتى يقوم في العالم الإسلامي من يسد مسده، في الإحاطة والرجاحة وسعة الفكر وسعة الرواية معا، والجمع بين المعقول والمنقول والفتيا الصحيحة الطالعة كفلق الصبح في النوازل العصرية، والتطبيق بين الشرع والأوضاع المحدثة مما لا شك أن الأستاذ الأكبر فيه نسيج وحده[26].

وتجدر الإشارة إلى أن رشيد رضا رحمه الله لم يكن موقفه من هذه المصادر موقف الناقل، المستشهد بما ورد فيها فحسب، بل كان في ذلك أنه عند تفسير قوله تعالى: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون﴾[27].

فإنه نقل أقوال: الطبري وأبي حاتم، والجصاص، والزمخشري، وأبي بكر بن العربي، وأبي عبد الله القرطبي، وأبي علي الفضل بن الحسين الشعبي، والرازي، والبيضاوي، والنسفي، وأبي السعود، ومحمود شكري الألوسي، والشوكاني، ومحمد صديق حسن خان، ثم يقول مقوما أقوال هؤلاء المفسرين،

متهما إياهم بالغلط والتقليد: «ومن تأمل أقوال من بعد الزمخشري في تفسير الآية يرى أنهم كلهم قلدوه فيما فسر به الركون وهو غلط منه كما حققته في أول الآية مشتق من الركن وهو الجانب القوي من البناء وكل شيء فمعنى الركون إليهم الاستناد إليهم والاعتماد على الركون على ولاياتهم ونصرهم»[28].

والمفسرون السابقون فسروا الآية بالميل اليسير، وفسروا الذين ظلموا بالذين وجد منهم ظلم، ومعنى هذا أن الآية تشمل كل من مال ميلا يسيرا إلى من وقع منه ظلم قليل[29].

وسنمثل بانتقاد الشيخ محمد رشيد رضا لبعض التفاسير، ليتوضح عندنا المنهج عنده أكثر.

أ. تفسير محمد بن جرير الطبري (310هـ)

وهو من أهم الكتب التفسيرية، إن لم نقل أهمها على الإطلاق، قال فيه الإمام النووي: «كتاب ابن جرير لم يصنف أحد مثله» وقال أبو حامد الإسفرائيني: «لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له تفسير ابن جرير لم يكن ذلك كثيرا»[30]، ولمكانته هذه عده الشيخ محمد رشيد رضا من المصادر المهمة في تفسيره التي أكثر من الأخذ منها ووصفه (بأم التفاسير) ووصف مؤلفه (بشيخ المفسرين)[31] فأكثر من النقل عنه، والاستشهاد بأقواله، والاستئناس بآرائه وترجيحاته حول كثير من الآيات، ولكن رغم هذا الإكبار والإعجاب بهذا التفسير فإنه قد انتقد عليه جملة أمور مما يدل على رجاحة عقله، واستقلال رأيه وبعده عن التقليد الذي يزري بقدر العلماء المحققين، ومثال ذلك أنه عند تفسير قوله تعالى: ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾[32]، وبما أن محمدا بن جرير قد مال إلى الاتجاه التفسيري القائل بأن المراد هو بختنصر البابلي الذي دخل بيت المقدس وخربها حتى صارت تلا من التراث، وهدم هيكل سليمان بتحريش من المسيحيين، فقال رحمه الله: «وأولى التأويلات التي ذكرتها بتأويل الآية قول من قال: عنى الله عز وجل بقوله ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه النصارى، وذلك أنهم هم الذين سعوا في خراب بين المقدس، وأعانوا بختنصر على ذلك ومنعوا مؤمني بني إسرائيل من الصلاة فيه بعد منصرف بختنصر عنهم إلى بلاده»[33].

فإن الشيخ محمد رشيد رضا قد أنكر على ابن جرير هذا وهو المؤرخ الحجة، لأنه يتضمن خطأ تاريخيا فادحا وهو أن حادثة بختنصر قد

وقعت قبل وجود المسيح بستمائة وثلاث وثلاثين سنة، ولولا أن ابن جرير مؤرخ حجة لأمكن التماس العذر له بحمل قوله على أدرينال الروماني الذي سماه اليهود بختنصر الثاني، وقد جاء بعد المسيح بمائة وثلاثين سنة[34].

والأولى عدم تحديد سبب معين لنزول هذه الآية، وتكون الآية وعيدا عاما يشمل كل من انتهك حرمة بيوت الله، سواء أوقع ذلك أم سيقع في المستقبل وتشمل مشركي الرومان، ومشركي الجزيرة العربية -كما هو اختيار الشيخ رشيد رضا نفسه- وهكذا[35].

ب - تفسير فخر الدين الرازي (606هـ)

والمسمى (مفاتيح الغيب) و(التفسير الكبير) كذلك، وهو من التفاسير التي اهتمت بالاستطراد، في العلوم الرياضية والطبيعة والمناقشات الفلسفية والكلامية، وذلك أن الرازي رأى بأن الناحية اللفظية والتركيبة قد استوفت حقها في التفاسير السابقة، ولا بد من تفسير يهتم بالجوانب التي أهملتها التفاسير السابقة، فاهتم هو بمطالب الحكمة، ومسائل علمية كونية[36].

ولقد كان الشيخ محمد رشيد رضا شديد الإكبار والإشادة بمكانة الرازي العلمية وإمامته في العلوم والفنون العربية، ولقبه بإمام النظار وحجتهم في علم العقائد على طريقة الفلسفة وعلم الكلام[37]. ولذا فقد أكثر من الاستشهاد بأقواله، وترجيحاته في فهم كثير من الآيات.

ولكن إلى جانب هذا الإعجاب والإكبار للإمام الرازي، فقد شنّ الشيخ محمد رشيد رضا حملات عنيفة ضد الرازي في مواطن كثيرة من تفسيره المنار، وأشد ما انتقده عليه تعصبه المذهبي في الفقه والعقائد، ومثال على ذلك أنه عند تفسير قوله تعالى ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات﴾[38].

أورد كلاما للرازي يفسر فيه هذه الآية ثم قال أقول: «إن الرازي رحمه الله تعالى يقرر هذه الحقيقة عندما يفسر آياتها وينساها في مواضع أخرى، فيتعصب للأشعرية في أصول العقائد، وللشافعية في فروع الفقه لا سيما فيما يخالفون فيه الحنفية»[39].

ومن جملة ما انتقد الشيخ رشيد رضا على الإمام الرازي مسألة تفسير آيات القرآن الكريم بالمصطلحات، لأن التفسير بالمصطلحات الحادثة يؤدي إلى إخضاع القرآن إلى الآراء والمذاهب والفلسفات، لأن اللفظة اللغوية تتطور دلالتها مع مرور الزمن فتصبح شاملة لجميع المعاني الملحقة التي تأتي بها ظروف الحياة المتطورة[40].

ولعل أهم نقد وجهه الشيخ محمد رشيد رضا إلى الفخر الرازي هو نعته إياه بقلة البضاعة في

الحديث وآثار الصحابة والتابعين وأئمة السلف، بل يذهب إلى أن: «... بل وصفه الحافظ الذهبي إمام علم الرجال في عصره بالجهل بالحديث، فلم يجد التاج السبكي ما يدافع به عنه لأنه من أئمة الأشعرية الشافعية إلا الاعتراف بأنه لم يشتغل بهذا العلم وليس من أهله فلا معنى للطعن عليه بجهله ولا بذكره في رجاله المجروحين ولا العدول»[41].

ج- تفسير الزمخشري (538هـ)

المسمى [الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل] والزمخشري مفسر معتزلي يؤمن بالعقل ويقدسه، ولكنه مع ذلك مفسر لغوي كبير، فأبدع وأجاد في هذا الميدان فتلقى علماء أهل السنة تفسيره بالقبول بالرغم مما احتواه من عنف على مخالفيه فقد غضوا الطرف على تلك الهفوات المخجلة والعورات الفاضحة وأقبلوا على دراسته وشرحه وبنوا عليه عامة بحوثهم في القرآن، فلا يخلو تفسير أو تأليف في موضوع قرآني من رجوع إليه واعتماد عليه[42].

ونظرا لمكانته هذه، وقيمته العلمية، فقد اعتمد الشيخ محمد رشيد رضا عليه كثيرا، إذ كان ينقل عنه معاني اللغة، ويستشهد بكلامه في مسائل الإعراب والنحو، ويعضد بكلامه آراءه في كثير من الآيات، وكان يشيد بفهم الزمخشري الدقيق، وطريقة جمعه بين الآيات الواردة في الموضوع الواحد، ومما كان يقوله فيه: «هذا ما فسر به -الزمخشري- العبارتين في الآيتين بحسب ذوقه السليم وفهمه الدقيق ثم نقل بعض ما ورد فيهما وما قاله هو المتبادر ومعنى العبارتين عليه واحد»[43].

ولكن رغم إشادته لفهم الزمخشري السليم وذوقه الرفيع للغة القرآن الكريم فقد اشتد في نقده في جملة من القضايا اللغوية والمذهبية، وأكثر ما انتقده عليه هو التزامه بمبادئ الاعتزال وفهم نصوص القرآن على ضوئها، بل حتى أخطاؤه اللغوية التي يقع فيها مردها إلى ميله إلى التفسير المأثور غير الصحيح، فقال رحمه الله: «وفسره الزمخشري بالميل اليسير وتبعه البيضاوي وغيره من المفسرين الذين يعتمد عليه في تحريره للمعاني اللغوية لدقة فهمه وذوقه وحسن تعبيره وإنه لكذلك، وقلما يخطئ في اللغة إلا متحرفا إلى شيوخ المذهب (المعتزلة) أو متحرفا إلى فئة رواة المأثور من الصحابة والتابعين أو نقلة اللغة»[44].

وبالإضافة إلى غربلة الشيخ محمد رشيد رضا للتراث التفسيري، فإنه سلط كذلك منهجه النقدي، على مظاهر الانحراف في العقيدة والسلوك، وفي الجانب الاجتماعي والسياسي من أجل الخروج بالمجتمع الإسلامي من مرحلة الركود الحضاري التي آلت إليها أوضاع

المسلمين في العصور المتأخرة، ولذلك فإن تفسيره كان حافلا بهذه المواضيع حتى قال عنه مؤلفه: «مبين لأمراض الأمم الروحية والاجتماعية ومرشدا إلى علاجها لأن القرآن فيه تبيان كل شيء»[45]، ولذا استحق تفسير المنار بأن يوصف بحق بأنه «مدار روح النهضة الإسلامية الحديثة وقوام التفكير الإسلامي المجدد»[46].

المنهج النقدي عند الإمام عبد الحميد ابن باديس:

لقد كان للحركة الإصلاحية التي رفع لواءها الإمام محمد رشيد رضا رحمه الله، عظيم الأثر في ربوع العالم الإسلامي، مشرقا ومغربا، ولقد أحسن العلامة ابن باديس تصوير هذا التأثير فقال: «إن السيد رشيد رضا بما نشر من تفسير للقرآن الكريم على صفحات المنار، وما كتب في المنار، وفي غير المنار، هو الذي جلى الإسلام بصفاته الحقيقية للمسلمين وغير المسلمين، وهو الذي لفت المسلمين إلى هداية القرآن، وهو الذي دحض خصوم الإسلام من المنتمين إليه ومن غيره، وهتك أستارهم حتى صاروا لا يحرك أحد منهم أو من أشباههم يده إلا أخذ بجنايته، فهذه الحركة الدينية الإسلامية الكبرى، اليوم، في العالم إصلاحا وهداية، بنيانا ودفاعا، كلها من آثاره فرحمه الله، وجزاه أفضل ما يجزي به العاملين»[47].

وأكثر الحركات تجاوبا مع حركة المنار التجديدية في المشرق، حركة الإصلاح في الشمال الإفريقي بزعامة الإمام المصلح، والمفكر المجدد، عبد الحميد بن باديس، هذه الشخصية التي لا تضارعها في ثرائها إلا شخصية جمال الدين الأفغاني[48].

ولئن تعددت جوانب العظمة في هذه الشخصية العملاقة، إذ هو مصلح اجتماعي كبير، سخر قدراته لمحاربة مظاهر التدهور الاجتماعي في الأمة الإسلامية...

ومرب أفنى عمره في تربية الأجيال وربطها بأصولها الثقافية والفكرية والحضارية حتى لا يمسخها الاستعمار بالتجنيس والاندماج...

وصحفي قدير وظف القلم والقرطاس لبلوغ مآربه في إيقاظ الحس الوطني والديني عند قطاع عريض من هذا الشعب المعطاء...

ومجاهد كبير، جابه الاستعمار الفرنسي دون خوف أو وجل، فأفسد عليه مشاريعه ومخططاته...

وشاعر مرهف الإحساس يتدفق شعره بالمعاني الجليلة والحكم السامية...

ومفكر من الطراز العالي غلغل الفكر في البحث عن أسباب الوهن الحضاري الذي أصاب الأمة الإسلامية...

وأديب كبير امتلك ناصية اللغة، وله أسلوب يبوئه مكانة عالية بين الكتاب المجيدين...

وخطيب مفوه يشد إليه السامعين، ويستثير كوامنهم ويحرك وجدانهم...

وهو مفسر لكتاب الله تعالى، له نظرات توفقه في إدراك أسراره، وفهم معانيه...

وغيرها من الجوانب التي أشار إليها عارفوه[49]، وهي كلها تحتاج إلى دراسة مستفيضة تكشف القناع، وتميط اللثام عن عظمة هذا الإبن البار الذي عاش للإسلام والجزائر[50]، ونحن في هذا المقال إنما يهمنا ابن باديس المفسر.

ابن باديس والتفسير:

رغم مشاغل الأستاذ العلامة ابن باديس التربوية الإصلاحية والسياسية، فإنه كان يخصص جزءا من وقته للقرآن الكريم أساس دعوته وحركته الإصلاحية يتدارسه ويدرسه للناس بالجامع الأخضر كل ليلة بعد صلاة العشاء حتى أتم تفسيره كاملا في مدة تقارب الخمس والعشرين سنة، يقول العلامة محمد البشير الإبراهيمي منوها بهذا العمل، مشيدا بهذا الجهد، واصفا إياه بالفخر لهذا القطر: «أتم الله نعمته على القطر الجزائري بختم الأستاذ عبد الحميد بن باديس لتفسير الكتاب الكريم درسا على الطريقة السلفية، وكان إكماله إياه على هذه الطريقة في خمس وعشرين سنة متواليات، مفخرة مدخرة لهذا القطر، وبشرى عامة لدعاة الإصلاح الديني في العالم الإسلامي كله، تمسح عن نفوسهم الأسى والحزن لما عاق إمام المصلحين محمد عبده عن إتمامه درسا ولما عاق حواريه الإمام محمد رشيد رضا عن إتمامه كتابة»[51].

ولقد أدركت الأمة الجزائرية، قيمة هذه المفخرة، وقدرت عظمة هذه البشرى فسارعت عن بكرة أبيها، زرافات ووحدانا، لتقيم احتفالات احتفاءا بالمفسر، واهتماما بالتفسير، ولقد حاول الإبراهيمي تصوير روعة هذا الإقبال، ولكنه اعترف بعجز التعبير عن الوصف فقال: «وليس وصف مشهد دخول هذا الموكب إلى قسنطينة وانغماس الضيوف والمضيفين في غمرة من نشوة الفرح البالغ حد الذهول، بالذي يسعه بياني إن وسعه إدراكي وعياني»[52].

ولقد كانت هذه الاحتفالات آية في التنظيم، وآية في الدلالة على تعلق الأمة الجزائرية بكتاب الله عزّ وجلّ، وبالعلماء الذين يأخذون بأيديها لفهم هذا الكتاب والعمل به وآية كذلك على أن الكلمة الصادقة من الداعية الصادق التي تتخذ القرآن مصدرا لها، وحسن فهمه منهجا

لها، تحدث في النفوس، والمجتمعات، ما لا تحدثه الأسلحة الفتاكة والجيوش الجرارة.

ولقد جادت قريحة الشاعر محمد العيد آل خليفة –رحمه الله– بقصيدة عصماء، صور فيها عظمة الحدث[53].

بمثلك تعتز البلاد وتفخر
وتزهـــر بالعلم المنير وتزخر
طبعت على العلم النفوس نواشئا
بمخـــبر صدق لا يدانيه مخبر
نهجت لها في العلم نهج بلاغة
ونهـــج مفاداة كأنك حيدر
حبتك عمالات الجزائر حرمة
مشرقة عظمى بها أنت أجدر
ففي كل وفد راشد لك دعوة
وفي كل حفل حاشد لك منبر
يراعك في التحرير أمضى من الظبى
وأفضى من الأحكام أيان يشهر
ودرسك في التفسير أشهى من الجنى
وأبهى من الروض النظير وأبهر
ختمت كتاب الله ختمة دارس
بصيـــر له حل العويص ميسر
فكم لك في القرآن فهم موفق
وكم لك في القرآن قول محرر
قبست من القرآن مشعل حكمة
ينار بـه السر اللطيف ويبصر
وبنيت بالقرآن فضل حضارة
أقـر لها كسرى وأذعن قيصر
حكيت جمال الدين في نظراته
كأن (جمال الدين) فيك مصور
وأشبهت في فقه الشريعة عبده
فهل كنته أم (عبده) فيك ينشر
أعد يا ابن باديس الحديث وأبده
بأنعمـــك التي أنت بها تؤثر
قسنطينة اعتزت بأن وفودها
على الخير فيها والهدى تتجهر
وفود سلام لا وفود خصومة
تبشـــر فيها بالرضى تبشـــر
وتهدي إلى عبد الحميد تحية
كزهر الربى أو أنها منه أعطر
وتهنئة منها بختم مفسر
من القول لا يسمو عليه مفسر

ونكتفي بهذا الجزء من تلك القصيدة الرائعة، للشاعر الملهم الموهوب، محمد العيد آل خليفة، شاعر النهضة الإصلاحية والعلمية والأدبية، في الشمال الإفريقي، وهو سجل صادق لهذا الاحتفال العظيم، الذي بلغ الذروة في كل شيء، ولكن شيئا واحدا بقي يكدر ذلك الصفو الذي بلغ حد الكمال... وينغص تلك الغبطة التي بلغت حد الحبور... وهو أن ذلك التفسير كان تدريسا، ولم يقيض الله تعالى من

يدون تلك النفائس والدرر... ولقد أدرك العلامة محمد البشير الإبراهيمي ذلك يوم الاحتفال، فقال: «وإذا كان من دواعي الغبطة ختم تفسير القرآن على هذه الطريقة في القطر الجزائري فإن دواعي الأسف أنه لم ينتدب من مستمعي هذه الدروس من يقيدها بالكتابة، ولو وجد من يفعل ذلك لربحت هذه الأمة ذخرا لا يقوم بمال، ولاضلع[54] هذا الجيل بعمل يباهي به جميع الأجيال، ولتمخض لنا ربع قرن عن تفسير يكون حجة هذا القرن على القرون الآتية.

ومن قرأ تلك النماذج القليلة المنشورة في الشهاب باسم مجالس التذكير علم أي علم ضاع وأي كنز غطى عليه الإهمال...»[55].

نعم إنها لخسارة لا تقدر بثمن، تلك التي ضيعها المسلمون لما لم يدونوا تلك الدروس النفيسة في التفسير، وإن المرء لتتملكه الدهشة، ويأخذه العجب كل مأخذ، لما يرى من تفريط تلامذة ابن باديس وحواريه في تلك الدرر النفيسة التي لا تقوم بمال.

ولقد كاد أن يحصل نفس الشيء مع تفسير الشيخ محمد عبده رحمه الله، الذي كان يفسر كتاب الله بأسلوب حكيم لم يسبق إليه، مع استقلال في الفكر، لكن السامعين، كما يقول الإبراهيمي: «...مع اعتقادهم بأن تلك الدروس فيض من إلهام الله أجراه على قلب ذلك الإمام وعلى لسانه، وأنها مما لم تنطو عليه حنايا عالم وصحائف كتاب لم تتسابق أقلامهم لتقييد تلك الدروس إلا قليل، ولو أنهم فعلوا لما ضاع من كلام ذلك الإمام حرف واحد، ولو لم يقيض الله محمد رشيد رضا لهذا العمل الجليل لضاع كله، ولكن الله وفقه لحفظ معاني تلك الدروس، وسدد قلمه في أدائها، ثم نهج نهجه بعد موته وسار على شعاع هديه في تفسير كلام الله، فأبقى لهذه تلك الأسفار القيمة المعروفة بتفسير المنار...»[56].

ولكن الألطاف الإلهية التي ألهمت ابن باديس رحمه الله أن ينتقي عينات من تلك النفائس، ويكتبها كافتتاحيات لمجلته الشهاب، واختار لها عنوانا موحيا، مليئا بالدلالات، ومفعما بالرموز وهو [مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير][57].

موقفات التفسير عند الإمام ابن باديس:

إذا كان التفسير هو محاولة فهم مراد الله عز وجل من وحيه على قدر الطاقة البشرية، كما مر معنا، فإن العلماء قد أوضحوا بأنه أشرف العلوم الشرعية قاطبة، لأنه العلم الذي يتخذ من كلام الله موضوعا له، يكشف عن خباياه، ويستلهم منه الهدايات، ويقتبس منه التعاليم، ويحدد معالم المنهج الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور،

ويبوئ من أخذ بمعالم ذلك المنهج دور الزيادة والقيادة، والشهادة على الأمم...

ولذا فإن التفسير ليس كلاً مباحا لكل من هب ودب، وإنما يحتاج المفسر إلى مؤهلات علمية وأخلاقية، حتى يكون أهلا لتعاطي التفسير، وإلا شمله ذلك الوعيد الشديد الذي توعد به النبي ﷺ: «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»[58].

والعلامة ابن باديس، قد حقق العلوم والمعارف التي يجب أن تتوفر في المفسر، من الملكة اللغوية وسعة الاطلاع على السنة، ومقاصد الشريعة وأسرار التشريع، والأطوار والتقلبات التي مرت بها المجتمعات الإسلامية والبشرية على العموم، ولقد أدرك الإبراهيمي رحمه الله هذه المؤهلات في ابن باديس فقال: «ثم جاء أخونا وصديقنا الأستاذ الشيخ عبد الحميد ابن باديس قائد تلك النهضة بالجزائر بتفسيره لكلام الله على تلك الطريقة، وهو ممن لا يقصر عمن ذكرناهم في استكمال وسائلها في ملكة بيانية راسخة، وسعة اطلاع على السنة وتفقه فيها وغوص على أسرارها، وإحاطة وباع مديد في علم الاجتماع البشري وعوارضه، وإلمام بمنتجات العقول ومستحدثات الاختراع ومستجدات العمران، يمد ذلك كله قوة خطابية قليلة النظير وقلم كاتب لا تفل له شباه»[59].

وعاد العلامة محمد البشير الإبراهيمي في موضع آخر إلى الحديث عن مؤهلات التفسير عند الإمام عبد الحميد بن باديس، وكيف أن المؤهلات التي رزقها ابن باديس لم يرزقها إلا الأفذاذ المعدودون من البشر فقال رحمه الله: «له ذوق خاص في فهم القرآن كأنه حاسة سادسة خص بها، يرفده بعد الذكاء المشرق والقريحة الوقادة، والبصيرة النافذة، بيان ناصع، واطلاع واسع، وذرع فسيح في العلوم النفسية والكونية، وباع مديد في علم الاجتماع، ورأي سديد في عوارضه وأمراضه، يمد ذلك كله شجاعة في الرأي، وشجاعة في القول، لم يرزقها إلا الأفذاذ المعدودون في البشر»[60].

كما علق البشير الإبراهيمي على الخطاب الذي ارتجله العلامة عبد الحميد بن باديس في نادي الترقي، والذي كان موضوعه "العرب في القرآن" وحاول الإبراهيمي نقله إلى قراء الشهاب الغراء ولكنه أقر بالقصور وهو صاحب البيان الجهير والقلم الخطير، فقال معلقا: «...وهيهات هيهات لما نود من نقله للقراء بجمله وألفاظه، فإنه خطاب عظيم في موضوع خطير لا يضطلع به غير الأستاذ في علمه بفنون القرآن وغوصه على مغازيه البعيدة ونفاذه في معانيه العالية»[61].

ومما يؤكد تضلع الشيخ عبد الحميد بن باديس في علوم التفسير، ما لاحظه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي من أنه رحمه الله: «سلك في درس كلام الله أسلوبا سلفي النزعة والمادة، عصري الأسلوب والمرمى، مستمدا من آيات القرآن وأسرارها أكثر مما هو مستمد من التفاسير وأسفارها»[62].

غرضه من التفسير: إن الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله، كان يعتبر نفسه خادما للقرآن الكريم، فقال في حفل الاختتام كلمة رائعة افتتح بها خطابه: «أنتم ضيوف القرآن... وهذا اليوم يوم القرآن... وما أنا إلا خادم القرآن»[63].

ولمكانة القرآن في منهجية عبد الحميد بن باديس الإصلاحية، فإنه كان دائما يؤخر الاحتفال الذي اقترحه بعض زملائه ورفائقه أن يقيموه له تنويها ببعض حقه على العلم، وشكرا لأعماله الجليلة وآثاره الحميدة في التعليم بهذا الوطن... واعترافا بكونه واضع أسس النهضة... فكان دائما يؤخر هذا الاحتفال ويقول: دعوا هذا حتى نختم دروس التفسير...

كأنه يرى أن عمله في التفسير هو أجل أعماله في التعليم... كأنه رحمه الله كان معلق البال بهذا العمل ويخشى أن تقطعه قواطع الدهر[64].

ولقد كان ابن باديس رحمه الله، شديد التأثر بالطريقة الهدائية في التفسير، التي انتهجتها مدرسة النار، فقد استهدف ابن باديس في تفسيره تخريج أجيال مؤمنة، متخلقة بأخلاق القرآن لأنه يؤمن بأن القرآن الذي كون رجالا في السلف لا يكثر عليه أن يكون رجالا اليوم لو أحسن فهمه وتدبره فقال رحمه الله: «فإننا نربي -والحمد لله- تلامذتنا على القرآن من أول يوم ونوجه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم، وغايتنا التي ستتحقق أن يكون القرآن منهم رجالا كسلفهم، وعلى هؤلاء الرجال تعلق هذه الأمة آمالها وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودها»[65].

وهذا النص يبين لنا بوضوح الأهداف السامية، والغايات النبيلة التي رام ابن باديس تحقيقها من خلال الدرس التفسيري، وهي محاولة بعث المجتمع الإسلامي الذي عرف مرحلة الركود الحضاري منذ أزمنة بعيدة، عن طريق بناء الإنسان المسلم بناء قرآنيا يكسبه الفعالية الحضارية ويخرجه من مرحلة الذهول الحضاري التي يعيشها، فقال رحمه الله: «لا نجاة لنا من هذا التيه الذي نحن فيه والعذاب المنوع الذي نذوقه ونقاسيه إلا بالرجوع إلى القرآن إلى علمه وهديه وبناء العقائد والأحكام والآداب عليه»[66].

وعاود ابن باديس الكرة ثانية عند تفسير قوله تعالى: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا﴾[67].

ليؤكد بأن القرآن هو منطلق الإصلاح، فبعد تقسيمه الأمراض التي تعترض المجتمعات البشرية إلى نوعين، أمراض أرواح وأمراض أبدان، أوضح بأن القرآن الكريم هو منطلق الإصلاح وهو شفاء المجتمع البشري مما شرع من أصول العدل وقواعد العمران ونظم التعامل فقال رحمه الله: «على أن القرآن هو شفاء للاجتماع البشري كما هو شفاء لأفراده فقد شرع من أصول العدل، وقواعد العمران ونظم التعامل وسياسة الناس، ما فيه العلاج الكافي، والدواء الشافي لأمراض المجتمع الإنساني في جميع أمراضه وعلله، شفاء العقائد والأخلاق وهما أساس الأعمال والمجتمع، وهذه الثلاثة لا تكاد تخلو آيات القرآن من معالجتها، وبيان ما هو شفاء لها ولا شفاء لها إلا بالقرآن -والبيان النبوي راجع إلى القرآن- ومن طلب شفاءها في غير القرآن فإنه لا يزيدها إلا مرضا، فهذه الأمم الغربية بسجونها ومشانقها ومحاكمها وقوتها قد امتلأت بالجنايات والفضائح المنكرة التي تقشعر منها الأبدان، وهذه الممالك الإسلامية التي تقيم الحدود القرآنية كالمملكة النجدية الحجازية، والمملكة اليمانية، قد ضرب الأمن رواقه عليهما واستقرت السكينة فيها، دون سجون ولا مشانق مثل أولئك، وما ذلك إلا لأنهم داووا الملك بدواء القرآن، فكان الشفاء التام»[68].

فرؤية ابن باديس للإصلاح الاجتماعي تنطلق من القرآن الكريم، إذ احتوى هذا الأخير على علاج كل المشاكل التي تعترض الاجتماع البشري، ولذا فإنه -ابن باديس- استهدف من خلال دروسه في التفسير، بعث إحياء القرآن على الطريقة السلفية، ليحيي به الأمة الإسلامية التي تدين بهذا القرآن، وكذا التقريب بين الأمة وبين أخلاق القرآن، لتعود هذه الأمة إلى مكانتها التي أرادها الله تعالى لها، تؤدي رسالتها على باقي الأمم والشعوب، ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾[69]، ويقول تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله...﴾[70].

ومن يطالع تلك المقالات النفيسة في التفسير في مجال مجالس التذكير يدرك صدق هذا الذي نقول، ويلاحظ كيف جلى ابن باديس الهداية

القرآنية في أسمى معانيها، وأوضح صورها، وكيف ارتقى -الإمام ابن باديس- بدرس التفسير، وخلصه من مرحلة الركود والانحطاط التي كان عليها.

نقد طرق تدريس التفسير ومناهجه العتيقة:

والكلام هنا وثيق الصلة، شديد الارتباط بالعنصر السابق في المقال، إذ هناك علاقة تكاملية بين الغرض من التفسير والمنهج المتبع في التفسير.

ولذلك فإن دعاة التجديد الإسلامي المحدثين، قد اعترضت سبيلهم تلك المناهج العتيقة في التفسير، والتي تحجب فعلا القارئ والدارس عن الهداية القرآنية، فدعوا إلى إزالتها واستبدالها بمناهج تقرب الإنسان من هداية القرآن، وتأخذ بيده إلى حسن الفهم لكتاب الله تعالى.

وفي مقدمة هؤلاء جمال الدين الأفغاني رحمه الله إذ دعا إلى الثورة على تلك المناهج التقليدية التي تحجب على المسلم نور القرآن وهدايته، لأنها تغرقه في مباحث لفظية وكلامية ومصطلحات غريبة يصعب عليه فك رموزها، فقال رحمه الله: «...انصرفنا عن الأخذ بروح القرآن والعمل بمعانيه ومضامينه، إلى الاشتغال بألفاظه وإعرابه والوقوف عند بابه دون التخطي إلى محرابه...وإنما نحن اليوم حملنا مع القرآن ألفاظا لفظية، ومناقشات حول أحكام فرضية، واستنتاجات ليست في مصلحة البشر ولا هي من وسائل هدايتهم إلى الإيمان به، وأضفنا إليه من الشرح والتفسير ما لا يحصل له سوى الإغراب وإرضاء العامة»[71].

ويقول الأفغاني كذلك مبينا مدى اعتناء المفسرين المتأخرين على وجه الخصوص بالمماحكات اللفظية والكلامية، وابتعادهم عن النظر في القرآن من حيث هو صالح لقيادة البشرية لما فيه صلاحها في الدنيا والآخرة فقال: «القرآن القرآن وإني لآسف إذ دفن المسلمون بين دفتيه الكنوز وطفقوا في فيافي الجهل يفتشون عن الفقر المدقع... وكيف لا أقول وآسفاه! وإذا نهض أحد لتفسير القرآن فلا أراه يهيم إلا بباء البسملة ويغوص، ولا يخرج من مخرج حرف الصاد من الصراط حتى يهوي هو ومن يقرأ ذلك التفسير في هوة عدم الانتفاع بما اشتمل عليه القرآن من المنافع الدنيوية والأخروية -مع استكماله الأمر على أتم وجوههما- فعم الجهل وتفشى الجمود في كثير من المتزدين برداء العلماء حتى تخرصوا على القرآن بأنه يخالف الحقائق العلمية والقرآن بريء مما يقولون»[72].

ولقد سار العلامة ابن باديس على خطى السيد جمال الدين الأفغاني في نقد المناهج العتيقة في التفسير التي كانت سائدة في المعاهد العلمية في وقته، وأكد بأنها مناهج تحول دون الانتفاع بهداية القرآن، واعتبر هذا مظهرا من مظاهر

هجر القرآن. فعند تفسير قوله تعالى: ﴿وقال الرسول يا ربّ إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا﴾[73]. دعا إلى الاهتمام بعلم التفسير، باعتباره العلم الذي يحقق لنا تدبر آيات القرآن وتفهم معانيها، إذ لا يعقل أن يتخرج طالب من معهد من المعاهد العلمية المرموقة، ويتصدى للوعظ والإرشاد، والتدريس والتعليم، دون أن يكون قد أخذ بحظ وافر من علوم التفسير، وهذا من أكبر العيوب في تلك المعاهد، وإذا وجد درس في التفسير في أحد هذه المعاهد فإن محتواه، لا يعدو أن يكون مماحكات لغوية، وتطبيقات نحوية، فقال رحمه الله: «ودعانا القرآن إلى تدبره وتفهمه والتفكر في آياته ولا يتم ذلك إلا بتفسيره، وتبينه، فأعرضنا عن ذلك وهجرنا تفسيره وتبينه فترى الطالب يفني حصة كبيرة من عمره في الحلول الآلية، دون أن يكون طلع ختمة واحدة في أصغر تفسير كتفسير الجلالين مثلا بل ويصير مدرسا متصدرا ولم يفعل ذلك، وفي جامع الزيتونة -عمره الله تعالى- إذا حضر الطالب بعد تحصيل التطويع في درس تفسير فإنه -ويا للمصيبة- يقع في خصومات لفظية بين الشيخ عبد الحكيم وأصحابه في القواعد التي كان يحسب أنه فرغ منها من قبل فيقضي في خصومة من الخصومات أياما أو شهورا فتنتهي السنة وهو لا يزال حيث ابتدأ أو ما تجاوزه إلا قليلا دون أن يحصل على شيء من حقيقة التفسير وإنما قضى السنة في المماحكات بدعوى أنها تطبيقات للقواعد على الآيات كأن التفسير إنما يقرأ لأجل تطبيق القواعد الآلية لا لأجل فهم الشرائع والأحكام الإلهية فهذا هجر آخر للقرآن مع أن أصحابه يحسبون أنفسهم أنهم في خدمة القرآن»[74].

فكل منهج في التفسير لا يجعل من إبراز الهداية القرآنية هدفا أساسيا له فهو في المنظور الباديسي نوع من أنواع هجر القرآن. حتى ولو كان فاعل ذلك يحسب نفسه في خدمة القرآن. فدرس التفسير ليس من أجل تطبيق القواعد الآلية من نحو وصرف وبلاغة... وإنما هو من أجل فهم الشرائع والأحكام، وإدراك مقاصد التشريع وأسرار التكليف وتقديم إجابات حول المشاكل التي تواجه الإنسان... ولقد أدرك أحد الباحثين المعاصرين هذه الجوانب في تفسير ابن باديس فقال مقارنا بين هذا المنهج الباديسي في التفسير وغيره: «ولكم كان ابن باديس رحمه الله رائعا متفردا مسددا في تفسيره للقرآن الكريم، كان يعرض بثاقب فكره وواسع أفقه وأسلوبه السهل الممتنع هداية القرآن، ورسالته الشاملة للفرد والجماعة والدولة والإنسانية كافة، وكان

يعالج مشكلات العصر على اختلاف جوانبها حين يفسر آيات القرآن. فهو يتكلم في لب قضايا السياسة والمجتمع وهو لا يغادر آيات الكتاب الكريم دون اعتساف أو حذلقة، ولكم أرى بعض من قد يفتنون العامة الآن بدروسهم في التفسير في موقف لا يحسدون عليه إلى جانب مثل ذلك العملاق الفقيه في كتاب الله الذي كان يقدم بتفسيره بعض الدلائل على أن هذا الكتاب حقا ((لا تنقضي عجائبه))»[75].

المنهج القصدي في تفسير الألفاظ والتراكيب:

إن المدخل الطبيعي لفهم أي نص من النصوص، هو الإحاطة بمعاني ألفاظه بحسب الوضع اللغوي. والقرآن الكريم تنطلق عليه هذه القاعدة، وعليه فإن أول ما ينبغي أن يحرص عليه المفسر هو معرفة ألفاظه، ولذا فقد أخرج البيهقي من حديث أبي هريرة مرفوعا: «أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه»[76].

والمراد بالإعراب في هذا الأثر هو التعرف على معاني الألفاظ. وليس المعنى الاصطلاحي للإعراب لأنه لم يكن قد عرف حينئذ. قال صاحب الإتقان: «المراد بإعرابه معرفة معاني ألفاظه وليس المراد به الإعراب المصطلح عليه عند النحاة وهو ما يقابل اللحن، لأن القراءة مع فقده ليست قراءة ولا ثواب فيها»[77].

ولأهمية ألفاظ القرآن الكريم في فهم نصوصه فقد أفردها العلماء بفن من أنواع علوم القرآن وهو (معرفة غريبه). وعدّوا معرفة هذا الفن ضرورية للمفسر، لأن عدم العناية بتدبر ألفاظ القرآن الكريم أوقع كثيرا من المفسرين في أخطاء شنيعة غير مقبولة. ومن الأمثلة على هذه المزالق الخطيرة حمل الإمام الطبري قوله تعالى: ﴿واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن. . .﴾[78] فقد حمل معنى (اهجروهن) على أنه: يربطن بالهجار وهو الحبل في البيوت، فعد أبو بكر بن العربي هذا هفوة من عالم بالقرآن والسنة تدعو إلى التعجب فقال: «وعجبا له مع تبحره في العلوم ولغة العرب كيف بعد عليه صواب القول، وحاد عن سداد النظر. فلم يكن بد والحالة هذه من أخذ المسألتين من طريق الاجتهاد المفضية بسالكها إلى السداد. فنظرتنا في موارد (هـ. ج. ر) في لسان العرب على هذا النظام... وإذا ثبت هذا وكان مرجع الجميع إلى البعد فمعنى الآية: أبعدوهن في المضاجع ولا يحتاج إلى هذا التكلف الذي ذكره العالم وهو لا ينبغي لمثل السدي والكلبي فكيف أن يختاره الطبري»[79].

وتجدر الإشارة إلى أن الضلالات التي ابتدعتها بعض الفرق الإسلامية، لتأييد أهوائها،

كان منطلقها تجاوز دلالات الألفاظ اللغوية، ولقد أدرك العلامة ابن تيمية هذا فقال: «وتفاقم الأمر في الفلاسفة والقرامطة والرافضة فإنهم فسروا القرآن بأنواع لا يقضي منها العالم عجبه كقولهم: ﴿تبّت يدا أبي لهب﴾ هما أبو بكر وعمر؛ و﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ هي عائشة؛ و﴿قاتلوا أئمة الكفر﴾ هما طلحة والزبير، و﴿مرج البحرين يلتقيان﴾ علي وفاطمة، و﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ الحسن والحسين، و﴿كل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ علي بن أبي طالب... وغير ذلك من مثل هذه الخرافات التي تتضمن تارة تفسير اللفظ بما لا يدل عليه بحال، وأخرى جعل اللفظ المطلق العام منحصرا في شخص»[80].

والعلامة عبد الحميد بن باديس جعل من أهمّ قواعد منهجه في التفسير بيان الألفاظ وشرح معانيها، شرحا وافيا يساعد على فهم النص القرآني المراد تفسيره، ولقد تحدث ابن باديس نفسه عن هذا فقال في خطبة افتتاح دروس التفسير: «فقد عدنا -والحمد لله- إلى مجالس التذكير من دروس التفسير نقتطف أزهارها ونجتني ثمارها بيسر من الله تعالى وتيسير، على عادتنا في تفسير الألفاظ بأرجح معانيها اللغوية، وحمل التراكيب على أبلغ أساليبها البيانية...»[81].

ونمثل لحمل ابن باديس لألفاظ الآية بأرجح معانيها اللغوية، بأسلوب بعيد عن الصعوبة خال من التعقيد، معتمدا في ذلك على أصح معاجم اللغة ودواوينها، كلسان العرب لابن منظور، ومعجم الصحاح الجوهري...الخ، أنه عند تفسير قوله تعالى: ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا﴾[82] قال: «قال في لسان العرب: (الأزهري وغيره جماع معنى الفتنة، الابتلاء والامتحان والاختبار وأصلها مأخوذ من قولك فتنت الفضة والذهب إذ أذبتهما لتمييز الرديء من الجيد)، ومنه قوله تعالى ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾ وقوله تعالى ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ وقوله تعالى ﴿وفتناك فتونا﴾ وقوله تعالى ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾: ﴿أتصبرون﴾ والصبر: حبس النفس على المكروه، والمكروه لها فعل ما فيه تعب لها وترك ما فيه لذة، ويكون في المشروع والمقدور، ففي الأول بالقيام بالمأمورات والترك للمنهيات، وفي

الثاني –وهو المصائب والبلايا– بالرضا والتسليم للخالق وعدم الاعتراض عليه، وعدم السعي في إزالتها بغير الوجه المأذون فيه...»[83].

وبالإضافة إلى الدقة والوضوح في الشرح اللغوي للألفاظ فإنه –رحمه الله– قد اهتم بالتراكيب في الآيات وتحليلها بطريقة تبرز خصائص الأسلوب القرآني، وإعجازه البياني والبلاغي دون الوقوع في المماحكات اللفظية، والخلاف بين النحاة واختلافات مدارسهم، وسأكتفي بإيراد مثال واحد، وهو عند تفسير قوله تعالى: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا﴾[84]. فقال رحمه الله: «التراكيب: أمروا بالدعاء لتوقيفهم على خيبتهم فيه بظهور عجز من يدعون، وحذف مفعول زعم، والتقدير زعمتموهم آلهة، للعلم بهما لأنهم ما دعوهم إلا لكونهم آلهة في زعمهم، ولا يملكون وقع بعد الفاء ولم يجزم في جواب الأمر لأنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره فهم لا يملكون، وهذا لأن الفاء قصد بها العطف ولم يقصد بها السببية، ولا يصح أن يقصد بها السببية، لأن ذلك يقتضي أن يكون عدم ملكهم متسببا عن الدعاء مثلها في قول الشاعر:

رب وفقني فلا أعدل عن

سنن الساعين في غير سنن.

فإن عدم العدول متسبب عن التوفيق، وليس كذلك الأمر في هذه الآية فإن عدم ملكهم متحقق سواء دعوا أو لم يدعوا، فلذلك امتنع النصب ووجب الرفع على التقدير المقدم»[85].

ومن هذا المثال نرى أن ابن باديس رحمه الله، لم يفرق تفسيره بمباحث نحوية، وقضايا إعرابية، يضيع معها المقصد الأساسي للتفسير وهو معرفة الشرائع والأحكام، وإنما كان يأخذ التركيب على هذه الصفة ولم يكن على تلك وهكذا... ولذا قال أحد الباحثين المعاصرين: «فهو يأخذ من النحو بمقدار الضرورة بحيث يكون في تناوله خدمة للمعنى الذي هو بصدده وذلك بدون أن يتجاوز مقدار الحاجة»[86].

ونظرا لهذا المنهج الذي اتبعه ابن باديس في التعامل مع الألفاظ والتراكيب، فإنه اشتد في نقد المفسرين الذين لم يولوا في تفاسيرهم هذا الجانب عناية كبيرة، فخلطوا في شرح الألفاظ وحملوا التراكيب ما لا تحتمله من المعاني.

ولننظر إليه –رحمه الله– وهو يفسر قوله تعالى: ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون، وإذا بطشتم بطشتم جبارين، فاتقوا الله وأطيعون﴾[87].

فقد أوضح -رحمه الله- أن هذه الآية كشفت لنا نواحي كثيرة من تاريخ العرب، ومدى ما بلغته العرب من مدنية وحضارة. فهي نص صريح في استحكامهم بعلم تخطيط المدن والعمران بوجه عام.

ولكن الذي لم يعجب ابن باديس هو حمل المفسرين للفظ المصانع في الآية على معنى القصور أو مجاري المياه. وهذا التفسير تشهد له معاجم اللغة ودواوينها بالصحة[88]. ولكن ابن باديس لم يعجبه هذا الاتجاه التفسيري فقال: «ولكن ليت شعري ما الذي صرف المفسرين اللفظين على معنى المصنع اللفظي الاشتقاقي، والذي أفهمه ولا أعدل عنه: هو أن المصانع جمع مصنع من الصنع كالمعامل من العمل وأنها مصانع حقيقية للأدوات التي تستلزمها الحضارة ويقتضيها العمران»[89] ثم أكد رحمه الله أن هذا ليس كثيرا على أمة وصفها القرآن بما تقدم في الآية، لأن المصانع هي أول مستلزمات العمران. ثم قال مناقشا من يتشكك في حملها على المصانع بمعنى المعامل معتمدا على أن الآيات قبلتها وهذا لا يعقل ما يلي: «ولا يقولن قائل إذا كانت المصانع ما فهمتم فلماذا يقبحها لهم وينكرها عليهم، فإنه لم ينكرها عليهم لذاتها وإنما أنكر عليهم غاياتها وثمراتها، فإن المصانع التي تشيد على القسوة لا تحمد في مبدأ ولا غاية... ومن محامد المصانع أن تشد لنفع البشر ولرحمتهم ومن لوازم ذلك أن تراعى فيها حقوق العامل على أساس أنه إنسان لا آلة».[90]

وهذا التفسير الذي انتصر إليه ابن باديس من كون المصانع في الآية جمع مصنع من الصنع، هو تفسير تشهد له الدلالة اللغوية للكلمة كما وردت في معاجم اللغة.[91] إذ من معانيها اللغوية ما يصنعه النّاس. ثم مما يقوي هذا الرأي -في نظري والله أعلم- أن السياق يفيده ويشهد له. فقوله تعالى: ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون﴾ بشمل كل المعاني التي ذكرها المفسرون للمصانع من البناء والحصون، ومجاري المياه، ...الخ ويأتي بعده قوله تعالى: ﴿وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون﴾ يفيد معنى جديدا، غير مذكور في التركيب السابق. وإعمال الكلام أولى من إهماله.

وضرب ابن باديس مثلا آخر عن عدم الالتزام بدلالات الألفاظ، فقال مبديا تعجبه: «ولا أغرب من تفسير هؤلاء المفسرين للمصانع إلاّ تفسير بعضهم للسائحين والسائحات بالصائمين والصائمات. والحق أن السائحين هم الرحالون والروّاد للاكتشاف والاطلاع والاعتبار. والقرآن الذي يبحث على السير في

الأرض والنظر في آثار الأمم الخيالية حقيق بأن يحشر السائحين في زمرة العابدين الساجدين فربما كانت فائدة السياحة أتم وأعمّ من فائدة بعض الركوع والسجود».[92]

والذي يقصده ابن باديس هنا هو تفسير جمهور المفسرين للفظة "السائحون" في قوله تعالى: ﴿التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين﴾[93] ولفظة "السائحات" في قوله تعالى: ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا﴾[94] فجمهور المفسرين فسّروا السياحة هنا بالصيام. حتى قال الزجاج: هو قول أهل التفسير واللّغة جميعا؛ والذي دعاهم إلى هذا التفسير هو الحديث المروي عن النبي ﷺ والذي جاء فيه «سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله».[95]

ولكن هناك اتجاه آخر في تفسير الآية وهو أن المراد بهم السائرون في الأرض. يقول العلاّمة جمال الدين القاسمي: «... لو أخذ هذا الحديث تفسيرا للآية لالتقى مع كل ما روي عن السلف فيها، لأن الجهاد في سبيل الله، كما يطلق على جهاد المشركين، يطلق على كل ما فيه مجاهدة للنفس في عبادة الله. ومنه الهجرة والصوم والسفر للتفقه في الدين والاعتبار بل ذلك هو الجهاد الأكبر، هذا على إرادة التوفيق بين المأثورات. أمّا لو أريد باللّفظ أصل حقيقته اللغوية، أعني الضرب في الأرض خاصة، الذي عبر عنه عكرمة بالمتنقلين لطلب العلم لكان بمفرده كافيا في المعنى. مشيرا إلى وصف عظيم وهذا ما حدا بأبي مسلم أن يقتصر عليه وهو الحق في تأويل الآية».[96]

وهكذا يرجح الشيخ جمال الدين القاسمي أن المعنى الحقيقي هو الحق في هذه الآية. لعدم ما يمنع منه، ولذا نقل عن بعض المحققين أنه يستفاد من هذه الآية (التحريم/5) مشروعية السياحة للنّساء كما هي كذلك للرجال ثم قال: «كأن الذي دعا البعض لتفسير (السائحات) بالصائمات أو بخصوص المهاجرات، تصوره أن السياحة في البلاد لا تناسب طبيعة النساء المأمورات بالحجاب. وكأنه يفهم من الحجاب أنه الحبس المؤبد، أو كأن الهواء نعمة مخصوصة بغير النساء، أو كأنهن لم يخلقن إلا لسجون البيوت التي ربما تكون أنكى من أعمق سجون الحياة...».[97]

وكما اشتد ابن باديس رحمه الله في نقد بعض المفسرين على شرحهم لبعض الألفاظ القرآنية، فإنه وجّه سهام النقدّ كذلك إلى بعض المفسرين في حملهم للتراكيب في بعض الآيات على غير وجهها الصحيح. وسأكتفي بإيراد مثال واحد، وهو عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿لقد كان لسبأ في مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا هل نجازي إلا الكفور وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السّير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين فقالوا ربّنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق﴾.[98]

فأكد أوّلا على أن هذه الآيات معجزة في البلاغة إذ استوعبت تاريخ أمة بكامله في سطور معدودة، ثم قال بأن هذه الآيات شاهد صدق على المدنية الزاهرة، والحضارة الراقية التي بلغتها تلك الأمّة العربية، فتلك المدينة كانت عامرة بالبساتين عن يمين السائر وشماله، ثم إنّ أصحابها كانوا متحكمين في بناء السدود، وما كانوا ليبلغوا هذا المبلغ لولا تحكمهم في الهندسة الذي هو ثمرة عدّة علوم فكرية أخرى.

ولكنهم كفروا بأنعم الله هذه، ووظفوها في ما يغضب الله ويسخطه، فسلط الله عليهم من الأسباب ما خرّب عمرانهم وأباد حضارتهم...

وتصرح هذه الآيات أن عمرانهم كان متصلا بعضه ببعضه، فلا يخرج السائر من قرية حتى تلوح له أعلام القرية الأخرى...﴿وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة، وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين...﴾ وبالإضافة إلى قوة العمران، فقد كان الأمن شائعا، ليلا ونهارا.

ولكن الشيء الذي كان ينقص هو الإيمان والشكر ﴿فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق﴾.

فما معنى قولهم ﴿ربنا باعد بين أسفارنا﴾

هناك اتجاه عند بعض المفسرين مفاده أن هؤلاء بطروا هذه النعمة، وأحبوا المفاوز يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في المخاوف فطلبوها، كما طلب بنو إسرائيل من موسى عليه

السلام أن يخرج لهم مما تنبت الأرض ﴿من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها . . .﴾.[99] مع أنهم كانوا في عيش رغيد، في منّ وسلوى وما يشتهون من مآكل ومشارب وملابس مرتفعة.[100]

ولكن ابن باديس لم يعجبه هذا الاتجاه التفسيري فقال منتقدا: «وأمّا قوله تعالى: ﴿قالوا ربنا باعد بين أسفارنا﴾ فإن المفسرين السطحيين يحملونه على ظاهره وأي عاقل يطلب بعد الأسفار؟

والحقيقة أنهم لم يقولوا هذا بألسنتهم وإنما هو نتيجة أعمالهم، ومن عمل عملا يفضي إلى نتيجة لازمة فإن العربية تعبر عن تلك النتيجة بأنها قوله، وهذا نحو من أنحاء العربية الطريفة»[101]

بمعنى أن الأعمال التي كانوا يقومون بها كانت تستلزم ذلك الجزاء، وهو العمران المتلاحم الذي كان يرتاح فيه المسافر...

وهذه الأمثلة التي أوردناها تعكس الحس النّقدي الذي كان يتمتع به العلاّمة عبد الحميد ابن باديس، والدقة العلمية عنده في التعامل مع الألفاظ والتراكيب في الآيات المراد تفسيرها، فلم يكن رحمه الله مجرد ناقل لأقوال السابقين من المفسرين، وإنما كان ينقل بفهم، وينقد بعقل، فيقبل ما يراه مقبولا، ويرد ما يراه غير مقبول.

المنهج النقدي المأثور في التفسير:

إذا كان التفسير بالمأثور هو التفسير الذي يتتبع صاحبه ما جاء في القرآن نفسه من وجوه البيان والإيضاح، وكذا ما روي عن النبي ﷺ من تفسير لآي القرآن الكريم، وما روي عن الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين مما هو تفسير لآي الكتاب الحكيم.

وعليه فمظاهر تفسير القرآن بالمأثور ثلاثة:

أ-تفسير القرآن بالقرآن:

إنّ المصدر الأول والأساسي الذي كان ابن باديس يعوّل عليه في فهم نصوص القرآن الكريم، هو القرآن نفسه، لأن القرآن يفسر بعضه بعضا وهو بهذا الاعتبار يشكل وحدة متكاملة، يقول العلامة ابن باديس معجبا بهذه القاعدة الجليلة من قواعد التفسير: «وما أكثر ما تجد في القرآن بيانا للقرآن فاجعله من بالك تهتد -إن شاء الله- إليه».[102]

ولقد تعددت مظاهر تفسير القرآن بالقرآن في تفسير ابن باديس، ولا أظن أنني أحيد عن الجادة، أو أبعد عن الصواب إذا قلت بأن السمة المميزة لتفسير ابن باديس هي هذه، وقد تقدم معنا قول الإبراهيمي المؤكد لهذا الاستنتاج العلمي، «فسلك في درس كلام الله أسلوبا

سلفي النزعة والمادة، عصري الأسلوب والمرمى، مستمدا من آيات القرآن وأسرارها أكثر مما هو مستمد من التفاسير وأسفارها...».[103]

وإنما الذي يهمنا في مقالنا هذا هو توظيفه لهذه القاعدة في منهجه النقدي في التفسير فعند تفسير قوله تعالى: ﴿والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما﴾[104] فإنه قد ناقش زعم القائلين بأن كمال التعظيم لله ينافيه أن تكون العبادة معها خوف من عقابه أو طمع في ثوابه، وهو زعم كان له رواج كبير في وسط المتصوّفة، فكتب رحمه الله مقالا موسعا تحت عنوان: [أيهما أكمل: العبادة مع رجاء الثواب وخوف العقاب أم العبادة دونهما؟] يعكس مدى تضلع ابن باديس في علوم الشريعة وإحاطته بأسرارها، ودقة منهجه في المناقشة والرّد، وبعد عرضه لكثير من الآيات في الموضوع وحسن استدلاله منها على المراد قال: «ولا تجد في القرآن آية واحدة دالة صريحة على ذكر عبادة -هكذا- دون خوف أو طمع»[105].

ب-تفسير القرآن بالسنة:

إن الأمر المتفق عليه بين علماء الشريعة أنه بعد كتاب الله عز وجل في بيان معاني الكتاب، تأتي سنّة رسول الله ﷺ، فهي التي تشرح وتفسر معانيه و تبين ما ورد من آيات مجملا، وتقيد ما ورد مقيدا وهكذا.

ولقد كان العلاّمة ابن باديس كثير الاحتفاء بهذا المصدر من مصادر التفسير، كثير الاعتناء به، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا﴾[106] وبعد تأكيده على عالمية الرسالة الإسلامية، التي تفيدها هذه الآية، والحكمة من ذلك، فإنه أورد حديثا نبويا يؤكد هذا المعنى وهو الحديث الذي يقول فيه ﷺ: «أعطيت خمسا له يعطهن أحد قبلي كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود» ثم قال رحمه الله معلقا على هذا التفسير: «وما أحسن التفسير تعضده الأحاديث الصحاح».[107]

والذي يطالع تفسير ابن باديس يجده حافلا بالمأثور، مما يدل على أن ابن باديس أولى هذه القاعدة الجليلة -تفسير القرآن بالسنة- عناية فائقة، واهتماما كبيرا، كيف لا وهو الذي أكد أكثر من مرة في تفسيره، على أنه يجب الفزع إلى السنة النبوية لاستجلاء معاني القرآن الكريم: «فعلينا أن يكون أول فزعنا في الفرق والفصل إليه (الكتاب) وأن يكون أوّل جهدنا في استجلاء ذلك من نصوصه ومراميه مستعينين

بالسنة القولية والعملية على استخراج لآليه...».[108]

وتجدر الإشارة إلى أن ابن باديس بيّن أن الكثير من الأحاديث والآثار التي ينقلها المفسرون على أنها تفسير بالمأثور، لا يكون لها تعلق مباشر بالآيات المراد تفسيرها. وهنا نورد كلمة قيمة للعلاّمة محمد جمال الدين القاسمي في الموضوع: «لمّا كان كثير من الأحاديث المروية تتشابه مع الآيات كان ذلك مما يقرب بينهما ويدعو إلى اتحاد المراد منهما، لما تقرر من شرح السنة للكتاب. وهذا ما درج عليه المحدثون قاطبة فترى أحدهم إذا رأى في خبر ما يشير إلى الآية قطع بأنه تفسيرها ووقف عنده ولم يتعدّه، وأما من فتح للتدبر بابا ومهد للنّظر مجالا، ورأى بأن الأثر قد يكون من محمولات الآية ومصادقتها وأنها أعم وأشمل، أو إن حمل الخبر عليها اشتباه أفضى إليه التشابه، فذاك وسع للسالك المسالك، وفتح للمريد المدارك، ورقاه من حظيرة النقل إلى فضاء العقل ولكل وجهة».[109]

ومحطة أخرى يجب التوقف عندها، وهي أن ابن باديس يفهم السنة في ضوء القرآن الكريم، وفي دائرة توجيهاته، وبما أن السنة هي شارحة هذا الدستور ومفصلته فيجب وأن لا تعارضه، فقال: «إن السنة النبوية والقرآن لا يتعارضان ولهذا يرد خبر الواحد إذا خالف القطعي من القرآن».[110]

وتطبيقا منه لهذه القاعدة فإنه عند تفسير قوله تعالى: ﴿لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون﴾[111] أكد بأن العرب لم يأتهم نذير قبل النبي ﷺ بنص هذه الآية، وغيرها من الآيات كلها قواطع من نجاة أهل الفترة، وعليه «فأبوا النبي ﷺ ناجيان بعموم هذه الأدلة ولا يعارض تلك القواطع حديث مسلم عن أنس رضي الله عنه... لأنه خبر آحاد فلا يعارض القواطع وهو قابل للتأويل يحمل الأب على العم مجازا يحسنه المشاكلة اللّفظية ومناسبته مجبر خاطر الرجل وذلك من رحمته ﷺ وكريم أخلاقه».[112]

وفي هذا الإطار دائما، ندرج موقفه رحمه الله من سحر النبي ﷺ، فإنه يرى بأن شرور الدنيا لا تعدو أبدان الأنبياء إلى أرواحهم، وعلى هذا فإنه يرى بأن سحر النبي ﷺ كان تأثيره على بدنه ﷺ فحسب، ولا علاقة له بروحه الطيّبة فقال: «ولا يتعاصى على هذه القاعدة ما ورد في سحر لبيد بن الأعصم اليهودي لرسول الله ﷺ وما يوهمه لفظ الرواية فإن ذلك كله لا يخرج عن التأثير البدني».[113]

وحديث سحر النبي ﷺ حديث صحيح أخرجه الشيخان في صحيحيهما،[114] ولكن

تباينت مواقف العلماء منه، فالشيخ محمد عبده يرى بأن هذا الحديث يتعارض مع صريح القرآن، الذي جاء فيه: ﴿إن تتّبعون إلاّ رجلا مسحورا﴾،[115] وهي آية صريحة في نفي أن يكون النبي ﷺ قد خولط عقله، الأمر الذي يشقه حديث السحر: «...يخيل إليه أنّه يفعل الشيء وما فعله...» وما دام القرآن مقطوعا به تواترا، وجب الاعتقاد بما جاء به وثبّته، وعدم الاعتقاد بما ينفيه.[116]

ولكن الشيخ محمد رشيد رضا كان له موقف آخر، يختلف عن موقف شيخه محمد عبده فهو يرى بأن المراد من السحر في هذا الحديث هو خاص بمسألة مباشرة النساء لا غير، وإنما فهم أكثر الناس أنه ﷺ سحر سحرا أثر في عقله هو الذي أدّى بالشيخ محمد عبده وغيره من علماء المعقول إلى إنكاره واعتباره طاعنا في النبوّة ومنافيا للعصمة، في حين أن الحديث -في نظر الشيخ محمد رشيد رضا- كناية عن الأمر الخاص وليس عائما في كل شيء فقال رحمه الله فلا يدخل فيه شيء من أمور التشريع ولا غير غشيان الزوجية من الأمور العقلية أو الأمراض البدنية، فضلا عمّا كان يريده الذين يرمون الأنبياء بسحر الجنون لأن أمورهم فوق المعقول عند أولئك الكافرين، فالمسألة محصورة حتى الآن فيما يسمونه الربط أو العقد أي عقد الرجل المانع من مباشرة زوجه فقط...».[117]

ونلاحظ أن موقف العلامة محمد رشيد رضا من سحر ﷺ، وموقف ابن باديس رحمهما الله، يتفقان في أن الحديث لا علاقة له بأمور التشريع، وقضايا النفس والروح، وإنّما كان تأثيره على بدنه فحسب، كما رأى ابن باديس، في حين الشيخ محمد رضا يرى وأنّه كان في أمر خاص لا غير وهو معاشرة النساء فقط.

نقده الإسرائيليات:

إن أسلوب القرآن في تناول قصص الأمم الماضية، هو التركيز على استلهام العظة والعبرة من الحديث التاريخي، ولم يكن غرضه الأساسي البحث عن تفاصيل الأحداث التاريخية، وأزمنة وقوعها، وأسماء الأشخاص... وهكذا. فكل هذا ورد مبهما لم يفصل فيه القرآن الكريم.

وعوض أن يوجه المفسرون القدامى كلّ عنايتهم إلى القصص القرآني لاستخلاص الدّروس، واستنباط العظة والعبرة منها، ومحاولة الوصول إلى السنن الكونية التي يحكم سير المجتمعات، وبناء المدنيات، وتدهور الحضارات، وهي أحكام وجودية لا تقل أهمية عن الأحكام الشرعية التي أخذت من الفقهاء والمفسرين كل جهودهم عوض هذا كلّه فإنّهم شوهوا جمال

التفسير القرآني بمرويات أهل الكتاب (الإسرائيليات) فنقلوا عنهم تفاصيل الأحداث وأسماء الأشخاص وبالغوا في النقل عنهم، حتى نقلوا عنهم بعض التفاهات كلون كلب أهل الكهف، والجزء من البقرة الذي ضرب به القتيل...الخ. وتركيز العلاّمة عبد الحميد بن باديس على إبراز الهداية القرآنية من خلال تفسيره للآيات، جعله لا يلتفت إلى الروايات الإسرائيلية، ويعرض عن ذكرها، لأنه يعلم علم اليقين وأنها تشغل القارئ للتفسير من القانون الذي يتضمنه الحدث التاريخي، ويتجلى لنا موقف ابن باديس من الإسرائيليات، من خلال تفسيره لقوله تعالى: ﴿فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين﴾.[118]

إذ اغتنمها فرصة لرد تلك الروايات التي بالغت في تعظيم ملك سليمان وأنه عليه الصلاة والسلام ملك مشارق الأرض ومغاربها، وكيف يعقل ذلك وهذه مملكة عظيمة –وهي مملكة سبأ– وكانت باليمن ولم يعلم سليمان من أمرها شيئا حتى اطلعه عليها بواسطة الهدهد، فقال تحت عنوان [تحقيق تاريخي] : «رويت في عظم ملك سليمان روايات كثيرة ليست على شيء من الصحة ومعظمها من الروايات الإسرائيلية، الباطلة التي امتلأت بها كتب التفسير مما تلقي من غير تثبيت ولا تمحيص من روايات كعب الأحبار ووهب بن منبه، وروى شيئا من ذلك الحاكم في مستدركه، وصرّح الذهبي ببطلانه، ومن هذه المبالغات الباطلة أنّه ملك الأرض كلها مشارقها ومغاربها، فهذه مملكة عظيمة بسبأ كانت مستقلة عنه ومجهولة لديه على قرب ما بين عاصمتها باليمن وعاصمته بالشام».[119]

فالأساس الذي اعتمده ابن باديس في رفض تلك الروايات هو عدم صحتّها ومخالفتها للمعقول والمنقول على حدّ سواء، وعليه فإذا صحت الرواية عن أهل الكتاب، ودليل ذلك موافقتها لما ورد في شرعنا، فإنه كان يعتمدها، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مّما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير. . .﴾[120] فإنه لم يتحرج في النقل عن الإنجيل معنى معينا ما دامت المصادر الإسلامية تشهد له فقال: «في أول الإصحاح العشرين من سفر اللاويين التصريح برجم الزناة فأبطل أحبارهم هذا الحكم وعوضوه بغيره من التخفيف وكتموا النص فبينه لهم ﷺ والقصة مشهورة في كتب السنن».[121]

ومثل هذا كثير في تفسير ابن باديس رحمه الله وهو يدل على انضباطه بالضوابط العلمية التي وضعها العلماء المحققون للتعامل مع الروايات الإسرائيلية، وهي قبول ما ورد في شرعنا ما يؤكد صحّته، ورفض ما ورد في شرعنا ما يكذبه، والسكوت عمّا سكت عنه. فلا يصدق ولا يكذب، ولكنّ عدم تصديقه أو تكذيبه لا يعني أن نحشره في مجال التفسير القرآني، وأن نزاحم به الأقوال المعتمدة والروايات الصحيحة في التفسير، وذلك حين وروده على أنه أحد الأقوال والآراء في تفسير الآية.

نقد المنهج الصوفي في التفسير:

ما كان للصوفية أن ينفردوا بمنهج خاص بهم في فهم القرآن الكريم لو لم يشهد التصوف ذلك التحوّل الخطير عبر مراحله التي مّد بها. وهو تحوله (التصوف) من نظرية في السلوك قائمة على العبادة ومجاهدة النّفس ومحاربة آفاتها، ومحاولة السير بها في منازل الإحسان والعروج بها في مدارج الكمال إلى نظرية في المعرفة تعتمد الكشف والإلهام والرياضة الروحية طرقا لاكتساب المعارف والعلوم.

يومها أصبح للصوفية منهجهم الخاص، وفهمهم المستقل لنصوص القرآن الكريم. ويقوم هذا المنهج على الإدراك الذوقي للنصوص، وعلى الرموز والغموض، والشطحات غير المفهومة ...إلخ.

ويقرب من المنهج الصوفي، المنهج الإشاري. وهو الذي يؤول أصحابه آيات القرآن على خلاف الظاهر بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك ويمكن التطبيق بينهما وبين الظواهر المرادة. ولذا فإن العلماء المحققون قد وضعوا جملة من الضوابط لقبول التفسير الإشاري أو رفضه.(122)

ولقد قسم عبد الحميد بن باديس التفسير الإشاري إلى نوعين: مقبول ومرفوض. واعتبر التفسير الإشاري المقبول من أجلّ علوم القرآن وذخائره التي يحرص عليها المفسر لكتاب الله. ولذلك وبعد إيراده لنموذج من التفسير الإشاري المقبول، قال: «مثل هذه المعاني الدقيقة القرآنية الجليلة النفيسة من مثل هذا الإمام الجليل من أجل علوم القرآن وذخائره، إذ هي معاني صحيحة في نفسها، ومأخوذة من التركيب القرآني أخذا عربيا صحيحا. ولها ما يشهد لها من أدلة الشرع. وكل ما استجمع هذه الشروط الثلاثة فهو مقبول صحيح. ومنه فهم عمر وابن عباس رضي الله عنهما أجل رسول الله ﷺ من سورة النصر أمّا ما لم تتوفر فيه هذه الشروط المذكورة وخصوصا الأول والثاني فهو الذي لا يجوز في تفسير كلام الله وهو كثير في التفاسير

المنسوبة إلى بعض الصوفية كتفسير ابن عبد الرحمن السلمي من المتقدمين، والتفسير المنسوب لابن عربي من المتأخرين».[123]

وعليه فاللفتة الإشارية حول النص القرآني إذا كانت صحيحة في معناها، وكان التركيب اللغوي يشهد لها، وكانت باقي الظواهر الشرعية تشهد لها، فابن باديس يعتبر مثل هذه اللفتات من النفائس التي يحرص عليها والذخائر التي ينتفع بها قارئ التفسير.

وكل تفسير لا يستجمع هذه الشروط، فهو مردود وباطل لأنه إخراج للألفاظ عن مداليلها اللغوية التي تفيدها بأصل الوضع اللغوي، وهذا هو المسلك الذي سلكته الفرق الباطنية التي وضعت مبادئها الفكرية، ومقرراتها الفلسفية أوّلا، ثم راحت تؤول القرآن تأويلا بعيدا عن مفاهيم الشريعة ومدلولات اللغة فيها، فوقعت في انحرافات خطيرة، انتهت بها إلى الخروج النهائي عن الإسلام.

خاتمة:

بعد هذه السياحة الفكرية، في رياض الفكر الباديسي، الشذي الرائحة، الحلو المذاق، نخلص إلى القول بأن مفسرنا عبد الحميد بن باديس: قد تجاوب مع صيحات التجديد الإسلامي التي أطلقها المجددون الكبار كجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ورشيد رضا، الداعية إلى الإصلاح الإسلامي عن طريق بعث العقل، وتحكيمه في فهم تراثنا الإسلامي، وقبول ما يجب أن يقبل، ورفض الأقوال التي يسندها نقل، ولا يؤيدها عقل، فقال ابن باديس في حفل الاختتام: «...وأذكر للثاني -الشيخ محمّد النخلي- كلمة لا يقل أثرها في ناحيتي العملية، وذلك أنني كنت متبرما بأساليب المفسرين وإدخالهم لتأويلاتهم الجدلية، واصطلاحاتهم المذهبية في كلام الله، ضيق الصدر من اختلافهم فيما لا اختلاف فيه من القرآن وكانت على ذهني بقية غشاوة من التقليد واحترام آراء الرجال حتى في دين الله وكتاب الله، فذاكرت يوما الشيخ النخلي فيما أجده في نفسي من التبرم والقلق، فقال لي: اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة، وهذه الأقوال المختلفة وهذه الآراء المضطربة يسقط الساقط ويبق الصحيح وتسترح...».[124]

وإذا علمنا بأن الشيخ محمد النخلي-رحمه الله- الذي درس عليه الشيخ عبد الحميد بن باديس في جامع الزيتونة، قد تأثر منذ شبابه الباكر بالأفكار الإصلاحية والتجديدية لجمال الدين الأفغاني ومحمّد عبده، وعمل جاهدا على تنشئة الأجيال الجديدة في الزيتونة عليها، أدركنا سر ذلك التجاوب الكبير بين مدرسة الإصلاح الإسلامي في الشمال الإفريقي برئاسة الشيخ عبد الحميد ابن باديس، وبين مدرسة التجديد

الإسلامي في المشرق ممثلة في مدرسة المنار الرائدة وأعمدتها الأعلام، وأدركنا سر امتداد المنهج النقدي في التفسير الذي كان أحد القواعد التي أقامت عليها مدرسة المنار فهمها للقرآن الكريم، وكيف تلقفه ابن باديس ووظّفه أحسن توظيف في بناء العقلانية الإسلامية التي تعمل على بعث مدنيتنا العربية الإسلامية القائمة على الوسطية والعدل، فلا هي تؤمن بالانغلاق الحضاري الذي يؤدي إلى الموت والانتحار، ولا هي تؤمن بالتبعية الحضارية التي تؤدي إلى المسخ والتشويه، والقضاء على هوية الأمة وخصوصيتها الحضارية... وإنما تقوم على التفاعل الحضاري الواعي القائم على المحافظة على الخصوصية الحضارية وحسن الانتفاع مما عند الأمم الأخرى مما هو ((مشترك إنساني عام)).

الهوامش

(01) ص/29.

(02) محمد/24.

(03) لسان العرب، جمال الدين بن منظور ج5/ص 55.

(04) مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ عبد العظيم الزرقاني، ج2/ص3.

(05) النحل /44.

(06) مجموع فتاوى ابن تيمية، ج13/ص 27.

(07) تفسير المنار، ج1/ص8.

(08) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ج2/ص229.

(09) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ج1/ص 9-10.

(10) مجموع فتاوى ابن تيمية، ج13/ص369.

(11) تفسير المنار، ج1/ص9.

(12) سنن الترمذي، كتاب التفسير، باب فضل القرآن، ج11/ص30 من عارضة الأحوذي.

(13) الإسرائيليات في التفسير والحديث، د.محمد حسين الذهبي، ص152.

(14) الإتقان في علوم القرآن، ج2/ص422.

(15) وخير مثال على هذا الذي نقول موقف الأب جومي Jaque Jommier في كتابه: إتفسير المنار القرآني| من جهود مدرسة المنار في التفسير. حيث اعتبرها لا شيء يذكر، أما المحاولة التي نالت إعجابه فهي محاولة محمد خلف الله |القصص في القرآن

الكريم] ووصفها بأنها المحاولة التجديدية الوحيدة، لأنها ترى بأن القصة القرآنية تفتقد إلى الصدق التاريخي، باعتبار أن التاريخ ليس من مقاصد القرآن إذ قال «إن المعاني التاريخية ليست مما بلغ على أنه دين يقبع وليست من مقاصد القرآن في شيء... إن قصد القرآن من هذه المعاني إنما هو العظة والعبرة ومعنى هذا أن قيمتها التاريخية ليست مما حماه القرآن الكريم ما دام لم يقصده». ص44.

وانظر مناهج واتجاهات التجديد في التفسير، في مصر، للدكتور محمد إبراهيم شريف، ص86.

(16) النساء /3.

(17) مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي ج8/ص166.

(18) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ج1/ص525.

(19) مجموع فتاوى ابن تيمية ج13/ص346.

(20) نفس المصدر.

(21) النساء/1.

(22) تفسير المنار ج1/ص21.

(23) جمال الدين الأفغاني، أحاديث وذكريات، عبد القادر الغربي، ص60.

(24) موقف صاحب المنار من المفسرين، مجلة جامعة بغداد، كلية الآداب، العدد 13، ص473، سنة 1973م.

(25) علل وأدوية: الشيخ محمّد الغزالي، ص 103

(26) حاضر العالم الإسلامي، شكيب أرسلان، ج1/ص 284.

(27) هود/113.

(28) تفسير المنار ج12/ص179.

(29) نفس المصدر ج12/ص 179.

(30) الإتقان في علوم القرآن ج2، ص243، ومعجم المفسرين لعادل نويهض ج2/ص140.

(31) تفسير المنار، ج2/ص 484، وج5/ص347، وج4/ص82.

(32) البقرة/114.

(33) تفسير الطبري ج1/ص397.

(34) تفسير المنار ج1/ص 431.

(35) انظر مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح، ص 140.

(36) التفسير ورجاله، محمد الفاضل بن عاشور، ص78.

(37) تفسير المنار ج4/ص112، وج6/ص384.

(38) آل عمران/105.

(39) نفسير المنار 4/ص50.

(40) موقف صاحب المنار من المفسرين، د.محسن عبد الحميد، ص364.

(41) تفسير المنار، ج11/ص 376.

(42) التفسير ورجاله، ص59.

(43) تفسير المنار، ج4/ص 18.

(44) تفسير المنار ج12/ص 169.

(45) تفسير المنار، ج1/ص 07.

(46) التفسير ورجاله، محمد الفاضل بن عاشور، ص176، وللاطلاع أكثر على البعد الإصلاحي في تفسير المنار، انظر الشيخ محمد رضا ومنهجه في التفسير، وهي أطروحتنا للماجستير من المعهد الوطني العالي لأصول الدين بالجزائر 1991. غير منشورة.

(47) آثار ابن باديس، ج3/ص96.

(48) ابن باديس حياته وآثاره، الدكتور عمار طالبي ج1/ص90.

(49) انظر ما كتبه العلاّمة الإبراهيمي في مقال تحت عنوان [الرجال الأعمال].

(50) هو عنوان مقال كتبه ابن باديس، [من أعيش؟].

(51) مجالس التذكير، ص15.

(52) مجالس التذكير، ص455.

(53) مجالس التذكير، ص 462، وقد قدّم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي للقصيدة، وانظر كذلك ديوان محمد العيد آل خليفة، ص، وقد بلغت أبيات القصيدة 76 بيتا.

(54) هكذا في الأصل، ولعل الصواب، ولاضطلع.

(55) مجالس التذكير، ص 399-400.

(56) مجالس التذكير، 399.

(57) بقيت تلك المقالات كالافتتاحية متفرقة في أعداد الشهاب، وكان السيد أحمد بوشمال -من حواريي ابن باديس- أول من حاول جمع تلك المقالات في كتاب، سنة 1948، وطبعته المطبعة الإسلامية الجزائرية، كما حاول تلميذه الشيخ محمد الصالح رمضان بالاشتراك مع الشيخ توفيق محمد شاهين من مصر، سنة 1964. القيام بنفس المهمة، ثم جاء الدكتور عمار طالبي وبذل جهودا معتبرة في جمع تراث الإمام ابن باديس فكتب كتابه الضخم [ابن باديس حياته وآثاره] في أربعة مجلّدات كبار، نشر دار المكتبة الجزائرية، سنة 1968م. وأعيد طبعه في دار الغرب الإسلامي، بلبنان سنة 1983م.

وأخيرا قامت وزارة الشؤون الدينية -الجزائر- وابتداء من سنة 1982م بنشر تراث ابن باديس وآثاره في المجالات المختلفة، وكان أول ما نشرته: [مجالس التذكير في كلام الحكيم الخبير] في سنة

1982م. انظر منهجية التفسير عند الإمام ابن باديس للأستاذ الزميل/ عبد الرحيم صالحي، ص31.

(58) رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، ج5/ص 139.

وانظر في العلوم التي يحتاجها المفسّر في الإتقان ج1/ص 179.

(59) مجالس التذكير، ص27،26.

(60) عيون البصائر، ص646.

(61) مجالس التذكير، ص 425.

(62) مجالس التذكير، ص 399.

(63) مجالس التذكير، ص474.

(64) مجالس التذكير، ص 453.

(65) مجالس التذكير، ص 476.

(66) مجالس التذكير، ص 252.

(67) الإسراء/82.

(68) مجالس التذكير، 120–191.

(69) البقرة/143.

(70) آل عمران/110.

(71) جمال الدين الأفغاني، أحاديث وذكريات، ص61.

(72) خاطرات جمال الدين الأفغاني، محمد المخزومي، ص99–100.

(73) الفرقان/30.

(74) مجالس التذكير ص251.

(75) عبد الحميد بن باديس رائد الحركة الإسلامية في الجزائر المعاصرة، الدكتور محمّد فتحي عثمان، دار القلم –الكويت ص 11، 1987، ص7–8.

(76) فيض القدير ج1/ص 558.

(77) الإتقان ج1/ص 149.

(78) النساء /34.

(79) أحكام القرآن، ابن العربي، ج1/ص 419.

(80) مجموع فتاوى ابن تيمية ج13/ص.

(81) مجالس التذكير، ص49.

(82) الفرقان/20.

(83) مجالس التذكير، ص241، وانظر كأمثلة كذلك، ص125 وص 177، وص 206...الخ.

(84) الإسراء/56.

(85) مجالس التذكير ص 156.

(86) حسن عبد الرحمن سلوادي، ابن باديس مفسرا ص.268.

(87) الشعراء/ 128–130.

(88) انظر لسان العرب، مادة (ص،ن،ع) ج8/ص 208 والصحاح للجوهرى مادة (ص،ن،ع) ج3/ص 1246. وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص 319 وتفسير الطبري ج19/ص 56 والقرطبي ج 13/ص 172.

(89) مجالس التذكير، ص 432.

(90) مجالس التذكير، ص432.

(91) لسان العرب مادة (ص.ن.ع) ج8/ص 208.

(92) مجالس التذكير ص 432.

(93) التوبة/112.

(94) التحريم /5.

(95) رواه أحمد في مسنده، ج/ص.

(96) تفسير القاسمي ج8/ص 334.

(97) تفسير القاسمي ج14/ص 224.

(98) سبأ /15-19.

(99) البقرة.

(100) مختصر تفسير ابن كثير، ج 127/3.

(101) مجالس التذكير، ص437.

(102) مجالس التذكير، ص 323.

(103) مجالس التذكير، ص399.

(104) الفرقان/ 65.

(105) مجالس التذكير، ص283.

(106) الفرقان/51.

(107) مجالس التذكير ص 264.

(108) مجالس التذكير ص 228.

(109) تفسير القاسمي ج14/ص 370.

(110) مجالس التذكير ص 54.

(111) يس/6.

(112) مجالس التذكير ص 373.

(113) مجالس التذكير ص 409.

(114) صحيح البخاري، كتاب الطب، باب الشرك والسحر من الموبقات ج4/ص 20.

(115) الفرقان/8.

(116) تفسير جزء عم، الشيخ محمد عبده، ص.180.

(117) تفسير سورة الفاتحة وست سوّر من خواتيم القرآن، محمد رشيد رضا، ص 110.

(118) النمل/ 22 .

(119) مجالس التذكير، ص 351.

(120) المائدة/ 15 .

(121) مجالس التذكير ص 52.

(122) انظر هذه الشروط في الموافقات للشاطبي ج3/ص228.

(123) مجالس التذكير ص 346.

(124) مجالس التذكير ص 475.